IDEAS. ACTION. IMPACT.
THE WASHINGTON INSTITUTE FOR NEAR EAST POLICY

عصر الجهادية السياسية

هيئة تحرير الشام: دراسة حالة

هارون ي. زيلين



عصر الجهادية السياسية

هيئة تحرير الشام: دراسة حالة

هارون ي. زيلين

THE WASHINGTON INSTITUTE for Near East Policy

دراسة سياسية رقم 175 (Policy Focus 175)

صدرت النسخة الإنجليزية الأصلية في أيار/مايو 2022 بعنوان:
The Age of Political Jihadism: A Study of Hayat Tahrir al-Sham

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز نسخ أي جزء من هذا المنشور أو نقله بأي شكل أو وسيلة، إلكترونية كانت أو آلية، بما في ذلك التصوير والتسجيل أو أي نظام لتخزين المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

هذه الطبعة العربية ترجمة للطبعة الإنجليزية ذات الرقم الدولي المعياري ISBN 979-8-9854474-4-6.

© 2022 معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى

معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى
1111 19th Street NW, Suite 500
Washington, DC 20036
www.washingtoninstitute.org

مصدر صورة الغلاف (حُذف المقطع المصوّر وقت النشر): https://bit.ly/3kIJcgE

المحتويات

	قائمة الصور	د
	شكر وتقدير	هـ
1	مقدمة	1
2	تطوّر الجهادية السياسية	7
3	مسار الجولاني نحو الجهادية السياسية	15
4	من السرية إلى الانخراط مع السكان المحليين	24
5	التركة التاريخية الثقيلة لهيئة تحرير الشام	49
6	العمليات الخارجية والتوجيه والاستلهام	57
7	مسألة التصنيف على قوائم الإرهاب	66
8	الخاتمة	74
	ملحق: المعايير القانونية لتصنيف منظمة إرهابية	77

قائمة الصور

مدرسة عثمان بن عفان القرآنية، تشرين الأول/أكتوبر 2021 9

مدرسة خالد بن الوليد القرآنية، تشرين الأول/أكتوبر 2021 9

عبد الرحيم عطون يحاضر في إدلب، أيلول/سبتمبر 2021 12

الجولاني يناقش أسعار الخبز مع حكومة الإنقاذ السورية 25

الجولاني يوزّع الهدايا في عيد الفطر، حزيران/يونيو 2018 28

الجولاني يفتتح طريق حلب–باب الهوى بعد توسيعه مع رئيس وزراء حكومة الإنقاذ 29

التصويت على تثبيت رئيس الوزراء علي كدة، كانون الأول/ديسمبر 2021 33

أعضاء في "سواعد الخير" يروّجون لقواعد مظهر المرأة 36

لوحة من حملة "حرّاس الفضيلة" التابعة لحكومة الإنقاذ 38

شخص يتسلّم بطاقة صحفية من حكومة الإنقاذ، حزيران/يونيو 2021 39

عناصر من داعش وجبهة النصرة في عيد الأضحى، تشرين الأول/أكتوبر 2013 50

إطلاق صاروخ على العلويين في محافظة اللاذقية، آب/أغسطس 2013 52

عضو في الهيئة يشرح "بلاد الشام" في جسر الشغور 60

شكر وتقدير

ما كان لهذه الدراسة أن تبلغ صورتها الحالية لولا مساعدة كثيرين. وفي مقدمتهم ريتشارد بورو، الذي يموّل منصبي في معهد واشنطن. وكذلك ماثيو ليفيت، مدير برنامج "راينهارد" لمكافحة الإرهاب والاستخبارات في المعهد، الذي يمنحني حرية البحث في طيف واسع من الموضوعات المحفّزة فكرياً. وقد قدّمت زميلتي في البرنامج، كاثرين باور، ملاحظات بالغة الأهمية بشأن كل المسائل المتعلقة بالتصنيفات الإرهابية والعقوبات، أسهمت في تعزيز العمل في صورته النهائية. كما أودّ أن أشكر كالفن وايلدر، الذي ساعد في البحث وقدّم ملاحظات على مسودة أولى. وفي السياق نفسه، أتوجه بالشكر إلى أيمن جواد التميمي، الذي راجع الدراسة وأسهم في التحقق من معلوماتها. وتبقى أي أخطاء أو إغفالات مسؤوليتي وحدي. كما أتوجه بالشكر إلى أريج الحاج ومحمد عبد العزيز على عملهما المتميز في ترجمة هذه الدراسة إلى العربية. وأخيراً، أشكر فريق التحرير والنشر في معهد واشنطن، ولا سيما جيسون وارشوف وماريا راداكسي، اللذين لولاهما لما جاءت هذه الدراسة بهذه اللغة وهذا الإخراج.

1

مقدمة

توقّف لحظةً وحاول أن تتخيّل أسامة بن لادن يلتقط صورة "سيلفي" مع سكان أفغانستان، أو أبا بكر البغدادي يقدّم طبقاً ساخناً من الفول المدمّس لأهالي العراق في أحد مطاعمهم. ليس هذا بالأمر اليسير، فقد حرص كلاهما على البقاء بعيداً عن الأضواء. غير أن أبا محمد الجولاني، زعيم الجماعة الجهادية "هيئة تحرير الشام"، فعل الأمرين معاً وعلى الملأ في إدلب مطلع آب/أغسطس 2020، من دون أن يأبه لاعتبارات الأمن العملياتي أو لخطر طائرات مسيّرة قد تحلّق فوقه.[1] وهذه مسافة طويلة قطعها الجولاني منذ إصداره الإعلامي الأول أواخر كانون الثاني/يناير 2012، حين لم يُظهر وجهه. ثم تبدّل المشهد أواخر تموز/يوليو 2016، حين أعلن أن جماعته آنذاك، "جبهة النصرة"، ستصبح "جبهة فتح الشام"، وهي جماعة لا ترتبط بأي "جهة خارجية"، فقطع بذلك علاقته بتنظيم القاعدة في الظاهر.[2]

تسعى هذه الدراسة إلى تحليل الوضع الراهن لهيئة تحرير الشام، وإلى تناول مسألة شطبها من قائمة وزارة الخارجية الأمريكية للمنظمات الإرهابية الأجنبية من زوايا متعددة، كما اقترح بعضهم. وتبحث كذلك في موقع التحوّل الذي شهدته الهيئة في السنوات الأخيرة ضمن المسار الأشمل للحركة الجهادية. وتستعرض الدراسة تطوّر ظهور الجولاني العلني وتحوّل اهتماماته الخطابية، مبيّنةً كيف توحي أفعال الهيئة بأن هذا التحوّل أبعد من مجرد كلام. ثم تنتقل إلى تتبّع مسار الجماعة من تنظيم إرهابي تقليدي إلى كيان أقرب إلى القيادات السلطوية الأخرى في المنطقة. وتسلّط الضوء أيضاً على المواقف الإشكالية التي ما زالت الجماعة متمسكة بها رغم أنها لم تعد تنتسب إلى "دولة العراق الإسلامية" أو إلى

تنظيم القاعدة ولا ترتبط بهما. وتعود الدراسة في خاتمتها إلى السؤال الأساسي: هل ينبغي أن تبقى هيئة تحرير الشام على قائمة الإرهاب أم أن تُشطب منها؟

ما زال كثيرون ينظرون إلى هيئة تحرير الشام من منظور جبهة النصرة، غير أن الجماعة عملت باسم "هيئة تحرير الشام" مدةً أطول مما عملت باسم "جبهة النصرة"، أي بعيداً عن القاعدة ومن دون اهتمام بالجهاد العالمي. لذلك يبدو من المنطقي اعتبار سلوكها منذ عام 2017 أصدق تعبيراً عن مواقفها الفعلية ووضعها الراهن. ولا ينبغي أن يُفهم هذا القول تأييداً للجماعة أو تهويناً من تجاوزاتها السابقة، لكن التحدي الذي تطرحه الهيئة اليوم يختلف عن التحدي الذي طرحته حين كانت جزءاً من دولة العراق الإسلامية أو من القاعدة، وهو أكثر تعقيداً منه.

إن قدرة الجولاني على التنقّل بحرية في إدلب ولقاء مختلف الفاعلين والسكان دليلٌ على أن الحركة الجهادية بلغت مرحلة جديدة في سعيها إلى حكم مستدام، وهي تشير من نواحٍ كثيرة إلى قبول فعلي، بحكم الأمر الواقع، من جانب بعض الأطراف الدولية. ففي ربيع 2021 أقرّ السفير جيمس جيفري، الممثل الأمريكي الخاص السابق لشؤون التواصل بشأن سوريا، بأن واشنطن توقفت عن استهداف الجولاني مباشرةً منذ آب/أغسطس 2018.[3] وما زالت هذه هي السياسة الأمريكية حتى اليوم. وباتت هيئة تحرير الشام تطرح النوع نفسه من المعضلات السياسية التي أربكت الحكومات الغربية في تعاملها مع جماعات إسلامية مسلحة أخرى وصلت إلى السلطة، مثل حزب الله وحماس وطالبان. لكن الهيئة، خلافاً لحزب الله وحماس المدعومتين من إيران، وعلى غرار طالبان المدعومة من باكستان وقطر، تحظى برعاية دولة حليفة للولايات المتحدة هي تركيا، وهذا ما يزيد المأزق السياسي تعقيداً.

وفي السنوات الأخيرة قطعت هيئة تحرير الشام علاقاتها بتنظيم القاعدة، ودعمت "حكومة الإنقاذ السورية" ذات القيادة المدنية في شمال إدلب وغرب حلب. ولذلك يرى بعض الباحثين الذين أمضوا وقتاً في مناطق سيطرة الهيئة والتقوا الجولاني أنه ينبغي النظر في شطبها من القائمة الأمريكية للإرهابيين المصنّفين، عبر الانخراط معها وبشرط أن تواصل تغيير سلوكها.[4] ويرى هؤلاء أن هذا النهج قد يصبح نموذجاً للتعامل مع جماعات جهادية أخرى حول العالم، وقد يساعد على إنهاء "الحرب على الإرهاب" التي تبدو بلا نهاية. في المقابل، رفض بعض الباحثين السوريين، ومعهم كثير من الناشطين المحليين في مناطق سيطرة الهيئة، هذه الدعوات، مؤكدين أن "تجارب الضحايا المحليين في سوريا ينبغي أن يكون لها اعتبار في تعريف الإرهاب السياسي"، وألّا يُصاغ هذا التعريف حصراً "وفق الاحتياجات الأمنية الغربية" في الخارج.[5]

أما الهيئة نفسها، فقد قال الجولاني إنه يريد من الولايات المتحدة والغرب أمرين أساسيين: "لا حاجة إلى أن تصنّفوا الناس إرهابيين وتعلنوا مكافآت لقتلهم... وما قد يجمعنا هو إنهاء الأزمة الإنسانية والمعاناة التي تشهدها المنطقة، ووقف موجات اللاجئين الفارّين إلى تركيا وأوروبا".[6] وبحسب تقي الدين عمر، مسؤول العلاقات العامة في هيئة تحرير الشام، فإن قرار واشنطن شطب "الحزب الإسلامي التركستاني" الذي يقوده الأويغور[7]، وهو حليف للهيئة في إدلب، من قائمة الإرهاب سيتيح للولايات المتحدة فرصة لإعادة النظر في تصنيف الهيئة أيضاً.[8] غير أن قرار شطب الحزب ربما ارتبط بحسابات التنافس مع الصين أكثر من ارتباطه بالملف السوري.

واستناداً إلى الأدلة التي تعرضها هذه الدراسة، ما زالت هيئة تحرير الشام تستحق تصنيفها جماعةً إرهابية، وإن لم تعد المسألة بالوضوح الذي كانت عليه من قبل. فقد أُدرجت الهيئة في البداية اسماً مستعاراً ضمن تصنيف جبهة النصرة.[9] وفي مطلع أيار/مايو 2014[10] فصلت وزارة الخارجية تصنيف جبهة النصرة الصادر في كانون الأول/ديسمبر 2012، الذي كان يعدّها اسماً مستعاراً لتنظيم "القاعدة في العراق".[11] أي إن تصنيف جبهة النصرة منظمةً إرهابية أجنبية بات منذ أيار/مايو 2014 قائماً بذاته، ولا يتوقف قانونياً على ارتباط رسمي بتنظيم آخر. ولذلك لا حاجة إلى تحديثه الآن، لأن نصّه لا يذكر شيئاً يتصل بالقاعدة، حتى وإن كانت الجماعة في ذلك الوقت ما تزال جزءاً منها. وبهذا فإن انفصال الهيئة عن القاعدة لا يثير أي إشكال قد ينجم عن خصوصيات تحديث تصنيف جبهة النصرة في أيار/مايو 2014.

وتبقى هيئة تحرير الشام إشكالية، لأنها ما زالت تعتنق معتقدات متطرفة تمجّد الإرهاب في الخارج، وتطلق الصواريخ على مناطق مدنية خاضعة لسيطرة نظام الأسد، وإن كانت قد توقفت عن تنفيذ العمليات الانتحارية. يُضاف إلى ذلك أن المناطق التي تسيطر عليها الهيئة تنشط فيها جماعات مصنّفة إرهابية ومرتبطة بها، مثل "جماعة أنصار الإسلام" و"كتيبة الإمام البخاري" و"كتيبة التوحيد والجهاد"، إلى جانب جماعات أخرى غير مصنّفة من المقاتلين الأجانب.[12] كما أطلقت الهيئة النار على القوات الخاصة الأمريكية حين نفّذت عمليتها الأخيرة مطلع عام 2022 للقبض على أبي إبراهيم الهاشمي القرشي، زعيم تنظيم الدولة الإسلامية، أو قتله، مع أن الهيئة تعدّ هذا التنظيم عدواً لها أيضاً.

لذلك فإن المسار الأكثر حكمة للولايات المتحدة هو الإبقاء على الوضع الراهن ومراقبة تطوّر الهيئة، لتحديد ما إذا كانت قد نزلت دون العتبة القانونية التي تجعلها منظمة إرهابية. فالقانون يُلزم وزارة الخارجية بمراجعة تصنيفات المنظمات الإرهابية الأجنبية مرةً كل خمس سنوات على الأقل.[13] وقد تتيح هذه الآلية للهيئة سبيلاً إلى الشطب من القائمة في مرحلة

لاحقة إذا أجرت تغييرات معيّنة تناقشها خاتمة هذه الدراسة. وفي أثناء المراجعة، تستطيع الولايات المتحدة أن تعرض ما توصلت إليه بشأن أنشطة الجماعة الإرهابية المستمرة أو صلاتها بجماعات إرهابية أخرى. وحتى إن لم تعد الهيئة جماعةً إرهابية من الناحية القانونية، فإنه يظل ممكناً فرض عقوبات عليها بموجب صلاحيات أخرى تتعلق بانتهاكات حقوق الإنسان في الحرب السورية، بسبب نزعاتها السلطوية وانتهاكاتها لحقوق الإنسان.

ولا تتناول هذه الدراسة على وجه التحديد كيف تمكّنت هيئة تحرير الشام من الصمود في السنوات الأخيرة، بل تقتصر على مناقشة وضعها الراهن وتصنيفها. غير أن هذه المسائل كلها كانت ستفقد أهميتها لولا أن تركيا أرسلت قواتها إلى إدلب وأقامت خط مواجهة يحول دون تقدّم نظام الأسد وروسيا، واستخدمت طائراتها المسيّرة لردع أي تحرك عسكري إضافي للنظام وروسيا ضد المناطق التي تنشط فيها الهيئة. وكانت تركيا قد صنّفت هيئة تحرير الشام جماعةً إرهابية في آب/أغسطس 2018[14]، وهذا يكشف تعقيد العلاقة التي تربطها بالجماعة، مع أنها أصبحت حاميتها الفعلية.

الهوامش

1. "الجدول الزمني لظهورات أبي محمد الجولاني"، جهادولوجي، آخر تحديث 22 آذار/مارس 2022، https://jihadology.net/2020/05/27/a-timeline-of-abu-muhammad-al-jawlanis-appearances
2. أبو محمد الجولاني، "إعلان جبهة النصرة لأهل الشام"، مؤسسة المنارة البيضاء، 24 كانون الثاني/يناير 2012، https://bit.ly/3qS7Xuj؛ وأبو محمد الجولاني، "إعلان تأسيس جبهة فتح الشام"، 28 تموز/يوليو 2016، https://bit.ly/3iQfbur
3. مارتن سميث، "مقابلة: جيمس جيفري"، فرونت لاين، 8 آذار/مارس 2021، https://www.pbs.org/wgbh/frontline/interview/james-jeffrey
4. جيروم دريفون وباتريك هاني، "تعزيز دولة تكنوقراطية (ما بعد جهادية) في إدلب"، مشروع POMEPS، دراسة 42، الصراعات المجمّدة (2020)، ص 42 – 47: https://pomeps.org/the-consolidation-of-a-post-jihadi-technocratic-state-let-in-idlib
؛ ودارين خليفة ونوح بونسي، "في إدلب السورية: فرصة واشنطن لإعادة التفكير في مكافحة الإرهاب"، مجموعة الأزمات الدولية، 3 شباط/فبراير 2021، https://www.crisisgroup.org/middle-east-north-africa/eastern-mediterranean/syria/syrias-idlib-washingtons-chance-reimagine-counter-terrorism
5. رهف الدغلي وعزام القصير، "مكّنوا السوريين لا أمراء الحرب: ضد إعادة تلميع صورة هيئة تحرير الشام"، المجلس الأطلسي، 15 تموز/يوليو 2021، https://www.atlanticcouncil.org/blogs/menasource/empower-syrians-not-warlords
6. مارتن سميث، "الجهادي: أبو محمد الجولاني"، فرونت لاين، 1 و14 شباط/فبراير 2021، https://www.pbs.org/wgbh/frontline/interview/abu-mohammad-al-jolani
7. وزارة الخارجية الأمريكية، "في شأن تصنيف الحركة الإسلامية لتركستان الشرقية (ETIM) منظمةً إرهابية بموجب المادة 212(أ)(3)(ب)(سادساً)(ثانياً) من قانون الهجرة والجنسية المُعدَّل"، السجل الفيدرالي 85، العدد 215، الإشعار العام 11252 (تشرين الثاني/نوفمبر 2020)، https://www.federalregister.gov/documents/2020/11/05/2020-24620/in-the-matter-of-the-designation-of-the-eastern-turkistan-islamic-movement-also-known-as-etim-as-a
8. "تحرير الشام تنتظر شطبها من قوائم الإرهاب: تصنيف سياسي"، المدن، 15 تشرين الثاني/نوفمبر 2020، https://bit.ly/36Kd2OD
9. وزارة الخارجية الأمريكية، "تعديلات على تصنيفات الإرهاب لجبهة النصرة"، 31 أيار/مايو 2018، https://2017-2021.state.gov/amendments-to-the-terrorist-designations-of-al-nusrah-front/index.html
10. وزارة الخارجية الأمريكية، "في شأن تصنيف جبهة النصرة [بأسمائها المستعارة كافة] منظمةً إرهابية أجنبية بموجب المادة 219 من قانون الهجرة والجنسية المُعدَّل"، الإشعار العام 8734، السجل الفيدرالي 79، العدد

94 (أيار/مايو 2014)،
https://www.govinfo.gov/content/pkg/FR-2014-05-15/pdf/2014-11217.pdf

11. وزارة الخارجية الأمريكية، "تصنيفات الإرهاب لجبهة النصرة بوصفها اسماً مستعاراً للقاعدة في العراق"، 11 كانون الأول/ديسمبر 2012،
https://2009-2017.state.gov/r/pa/prs/ps/2012/12/201759.htm

12. وزارة الخارجية الأمريكية، "تصنيف وزارة الخارجية كتيبة الإمام البخاري منظمة إرهابية"، 22 آذار/مارس 2018،
https://2017-2021.state.gov/state-department-terrorist-designation-of-katibat-al-imam-al-bukhari/index.html
؛ و"تصنيف كتيبة التوحيد والجهاد منظمة إرهابية"، 7 آذار/مارس 2022،
https://www.state.gov/terrorist-designation-of-katibat-al-tawhid-wal-jihad

13. للاطلاع على الأساس القانوني، انظر: https://bit.ly/3EoDqd2

14. رئاسة الجمهورية التركية، قرار تعديل قائمة تجميد الأصول رقم 50 (بتصنيف هيئة تحرير الشام)، الجريدة الرسمية 30521، 31 آب/أغسطس 2018،
https://www.resmigazete.gov.tr/eskiler/2018/08/20180831-4.pdf

2

تطوّر الجهادية السياسية

مع أن النظام السوري بقيادة الرئيس بشار الأسد يعلن تمسّكه باستعادة جميع الأراضي الخاضعة لسيطرة هيئة تحرير الشام، فقد صمدت الجماعة واحتفظت بسيطرتها على الأرض من دون أن تثير القدر نفسه من القلق الدولي الذي أثارته "حركة الشباب المجاهدين" حين استولت على أجزاء من جنوب الصومال، أو "تنظيم القاعدة في جزيرة العرب" حين سيطر على أجزاء من جنوب اليمن، أو "تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي" حين سيطر على أجزاء من شمال مالي، أو "تنظيم الدولة الإسلامية" حين سيطر على أجزاء من غرب العراق ووسط ليبيا الشمالي وشرق سوريا. ومن المهم فهم أسباب ذلك، إذ إن تحليلها يعيد فتح النقاش حول الفرق بين "الاستراتيجيين" و"العقائديين" في الحركة الجهادية. وكما لاحظ الباحث النرويجي برينيار ليا، يدور هذا النقاش حول "المعضلة العامة المتمثلة في كيفية تحقيق التوازن بين النقاء الأيديولوجي والجدوى السياسية".[1] وقد تكون مناورات هيئة تحرير الشام في السنوات القليلة الماضية أقوى الحالات الجهادية وأنجحها حتى الآن في تبنّي نهج أكثر براغماتية في السياسة اليومية، وقد تكون مؤشراً على ما قد يصبح توجهاً نحو "الجهادية السياسية" على حساب سلفية جهادية تضع العقيدة في المقدمة. وليس غريباً أن تولّد الحرب السورية تياراً فرعياً جديداً داخل المعسكر الجهادي الأوسع، فكما أوضح الباحث البريطاني شيراز ماهر في كتابه "السلفية الجهادية: تاريخ فكرة"، فإن "كل التحوّلات الفكرية الكبرى [داخل الحركة الجهادية] جاءت استجابةً للحرب".[2]

وتسير هيئة تحرير الشام والجولاني، من بعض الوجوه، على الطريق الذي شقّه مواطنهما الجهادي السوري أبو مصعب السوري قبل أكثر من خمسة عشر عاماً في مؤلَّفه الضخم "دعوة

المقاومة الإسلامية العالمية" الذي يقع في نحو 1600 صفحة. ويعرض هذا الكتاب اعتراضات السوري على السلفية كما يعتنقها كثير من الجهاديين، ويصفها بأنها عقيدة تهزم نفسها بنفسها، لإفراطها في التشديد على النقاء العقدي وعجزها عن توحيد الصفوف في مواجهة الحرب التي يشنّها على المسلمين من يسمّيهم "مغول العصر"، أي الأمريكيين و"الصهاينة". ويقول الكتاب: "إنها في صورتها النهائية تشكّل باباً للتفرقة والتحزّب والتعصب الفقهي، وهي بذلك حركة ذات طابع أيديولوجي، وسببٌ للاقتتال الداخلي في صفوف المسلمين وفي قلب المقاومة".[3] ولا يوجد دليل علني على أن الهيئة تستلهم مؤلفات السوري السابقة[4]، لكن الجولاني ألمح إلى بعض هذه النقاط في مقابلته مع الصحفي مارتن سميث لبرنامج "فرونت لاين" في شباط/فبراير 2021، حين قال: "إن حصر وصف هيئة تحرير الشام في كونها [جماعة] سلفية أو جهادية يحتاج في رأيي إلى نقاش طويل، ولا أريد أن أعلّق على ذلك الآن، لأنه يتطلب الكثير من البحث والدراسة".[5] ومع ذلك، في مقطع مصوّر أصدرته الهيئة في شباط/فبراير 2022 يُظهر قيادتها وهي تكرّم الأوائل في دورة قيادة الكتائب العسكرية، قال أبو الحسن الحموي، المسؤول العسكري العام في الهيئة: "المعركة يا إخوة خط دفاع متقدّم عن أهل السنة... ولا حل إلا بالجهاد والقتال في سبيل الله".[6] ويبيّن هذا المشهد أهمية الإصغاء إلى ما يقوله الجولاني والهيئة لجمهورهما المحلي، وعدم الاكتفاء بمتابعة تصريحاتهما العلنية الموجّهة إلى الغرب.

وقد تبيّن من أبحاث ميدانية أجراها الباحثان جيروم دريفون وباتريك هاني في إدلب خلال السنوات الأخيرة أن الهيئة، خلافاً للقاعدة وتنظيم الدولة الإسلامية اللذين سعيا إلى فرض عقيدتهما السلفية وحدها في المناطق الخاضعة لهما، تعتمد نهجاً مختلفاً في المساجد وفي كلية الشريعة بجامعة إدلب، حيث "تُدرَّس العقيدة السلفية، لكن يُولى اهتمام أيضاً للمذاهب الفقهية [الأخرى]، مع دور خاص للمذهب الشافعي لأنه الأكثر انتشاراً في إدلب".[7] ومن اللافت أن "جماعة أنصار الإسلام"، وهي جماعة جهادية متحالفة مع الهيئة، تدعم "معهد الإمام الشافعي" في إدلب.[8] ومع ذلك، ينطوي الأمر على خطر المبالغة في تصوير الهوّة بين السلفية والمذاهب الفقهية التقليدية. يُضاف إلى ذلك أن جامعة إدلب استضافت في 19 نيسان/أبريل 2022 محاضرة عبر تطبيق "زوم" للمنظّر الجهادي الأردني إياد قنيبي.[9] أما على مستوى التعليم الأساسي، فإن مدرسة "دار الوحي الشريف" القرآنية التي تديرها الهيئة مجانية، وتوفّر الزي المدرسي مجاناً أيضاً، فتكتسب بذلك أفضلية واضحة على المدارس الابتدائية الحكومية التي تتقاضى رسوماً فعلية، وتمنح الجماعة ميزة في تشكيل نظرة الأطفال إلى العالم وفق تفسيراتها للإسلام.[10]



تلاميذ في مدرسة عثمان بن عفان القرآنية، تشرين الأول/أكتوبر 2021.



تلاميذ في مدرسة خالد بن الوليد القرآنية، تشرين الأول/أكتوبر 2021.

ويتردد في تعليق الجولاني على السلفيين والجهاديين صدى تصريح سابق للمنظّر الجهادي البارز أبي قتادة الفلسطيني في تشرين الأول/أكتوبر 2018، بعدما انتقده منافسه الفكري أبو محمد المقدسي لأنه رثى الصحفي السعودي جمال خاشقجي الذي يرى فيه الجهاديون رجلاً مرتبطاً بجماعة الإخوان المسلمين، ومن ثَمّ خصماً أيديولوجياً. فقد قال أبو قتادة: "لست جهادياً ولا سلفياً، ومن يريد أن يُلبسني رداءه الأيديولوجي رغماً عني فلن

يفلح".[11] وكان ردّ أبي قتادة في جوهره دعوةً إلى حركة أكثر انفتاحاً واستيعاباً، في مقابل ما يُعدّ حركة أكثر جموداً مستوحاة من أفكار أبي محمد المقدسي.

لذلك لم يكن مستغرباً أن تتبرأ الهيئة من المقدسي بعدما قضت على "حراس الدين"، الفرع السوري المستحدث لتنظيم القاعدة، في حزيران/يونيو 2020[12]، إذ أعلنت: "نبرأ إلى الله منه ومن منهجه، فليس منا ولسنا منه، ولسنا على طريقته... وهذا يوجب علينا النصح بهجر كتبه وفتاواه، وعدم اعتماده مرجعاً في الفتوى، فضلاً عن أن يكون منظّراً في قضية جهاد. وقد بات واضحاً للجميع حقيقة المنهج الذي يسلكه، وأنه أقرب ما يكون إلى طريقة الخوارج[13] ومنهجهم وتأويلاتهم وأحكامهم".[14]

كيف وصلت الحركة الجهادية إلى ما هي عليه اليوم

منذ أن تبلورت الأيديولوجيا الجهادية المعاصرة ثم تجسّدت في جماعات مختلفة على مرّ الزمن، سعت الحركة في جوهرها إلى تدارك ما تعدّه إلغاءً للخلافة على يد الجمهورية التركية عام 1924، وذلك بإعادة إقامتها وتطبيق الشريعة الإسلامية وفق تفسيرها لها. وعلى مستوى الخطاب العام، تُكثر الجماعات الجهادية من الحديث عمّا تسميه إذلال الأمة الإسلامية، وتفوّق أعدائها عليها، ومحاولاتهم طمس هويتها الإسلامية، وضرورة إحياء مجدها وقوتها الغابرين عن طريق الجهاد. وحتى إن قلّلت الهيئة في رسائلها الموجّهة إلى الغرب من شأن فكرة إقامة دولة إسلامية والخطاب الداعي إلى إحياء مجد الأمة، فإن هذه الموضوعات ما زالت حاضرة بوضوح في دعايتها الموجّهة إلى الداخل. ففي مقطع مصوّر أصدرته "مؤسسة أمجد للإنتاج المرئي" التابعة للجماعة في آب/أغسطس 2021، خاطب الجولاني دفعة من خرّيجي دورة القوات الخاصة، وقال إن الهيئة حين "تفتح" دمشق ستقيم "حكم الإسلام". ويؤكد ذلك أن إقامة الدولة الإسلامية تبقى الهدف الأسمى للجماعة.[15] وفي المقطع الصادر في شباط/فبراير 2022، تحدّث الجولاني عن إذلال الأمة في هذا العصر، ومحاولات طمس هويتها، وعن أمله في أن يحيي المجاهدون مجدها الغابر.[16] كذلك أنتج يحيى بن طاهر الفرغلي (أبو الفتح الفرغلي)، أحد كبار المنظّرين في الهيئة، سلسلة مصوّرة بين عامَي 2019 و2020 بعنوان "الطريق إلى الخلافة: تاريخ الحركات الجهادية من الإخوان المسلمين إلى الجهاد الشامي".[17] وتصوّر السلسلة نشأة هيئة تحرير الشام مرحلةً جديدة وفصلاً من فصول الجيل الخامس من العاملين على إحياء

الخلافة[18]، وهذا يعني أن إحياء الخلافة مشروع تتبنّاه الهيئة، حتى وإن لم تدّعِ أنها الجماعة التي تمثّل الخلافة، على عكس تنظيم الدولة الإسلامية الذي نسب هذه الصفة إلى نفسه.

ومنذ ستينيات القرن الماضي وسبعينياته، طوّرت الحركة الجهادية قدراتها وإمكاناتها، فمرّت بمراحل متعاقبة بنت كلٌّ منها على ما سبقها، من دون أن تُلغي بالضرورة مرحلةٌ ما قبلها حين تبدأ. ويمكن تقسيم هذه المراحل على النحو الآتي:

- منتصف الستينيات: جماعات إرهابية سرية تسعى إلى إسقاط الأنظمة العربية المحلية.
- منتصف الثمانينيات: بداية ظاهرة المقاتلين الأجانب العابرين للحدود وحركات التمرد.
- التسعينيات: الإرهاب الدولي.
- العقد الأول من الألفية الثالثة: التهجين بين الإرهاب المحلي والإرهاب العالمي.
- العقد الثاني من الألفية الثالثة: نمو مشاريع الدعوة والحكم.

وليس مستبعداً أن يشهد عقد العشرينيات من هذا القرن بروز عنصر دبلوماسي في أدوات الحركة الجهادية. فنجاح حركة طالبان في التفاوض على خروج الولايات المتحدة من أفغانستان في آب/أغسطس 2021، والمحادثات التي سبقت ذلك في الدوحة، يقدّمان نموذجاً محتملاً لاستراتيجيات جديدة قد تعتمدها الجماعات الجهادية لبلوغ غاياتها النهائية.[19] وثمة مؤشرات بالفعل على أن "جماعة نصرة الإسلام والمسلمين"، فرع تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي في مالي، بدأت تجري مفاوضات رفيعة المستوى بعد أن شاركت في محادثات على المستوى المجتمعي.[20] وقد ألمحت الهيئة إلى هذا الاحتمال في محاضرة ألقاها أحد كبار منظّريها، عبد الرحيم عطون (أبو عبد الله الشامي)، في إدلب في 15 أيلول/سبتمبر 2021. فعند تحليله أوجه الشبه والاختلاف بين هيئة تحرير الشام وحركتَي حماس وطالبان في جزء من المحاضرة، أشار إلى أن كلتيهما "نسجت شبكات علاقات مع قوى خارجية لتحقيق أهدافها".[21]



عبد الرحيم عطون يلقي محاضرة في إدلب، أيلول/سبتمبر 2021، بعنوان "الجهاد والمقاومة في العالم الإسلامي: طالبان نموذجاً".

لذلك ليس مستغرباً أن يكشف السفير جيفري أن الهيئة سعت إلى إبلاغ واشنطن عبر قنوات خلفية: "نريد أن نكون أصدقاءكم. لسنا إرهابيين، نحن نقاتل الأسد فحسب... ولا نشكّل تهديداً لكم".[22] غير أن إدارة بايدن أوقفت سياسة إدارة ترامب القائمة على التواصل مع الهيئة عبر القنوات الخلفية. ومع ذلك، ومع تعاظم نفوذ الهيئة وجماعات جهادية أخرى في ساحات إقليمية مختلفة، وتزايد تركيز السياسة الأمريكية والغربية على التنافس بين القوى الكبرى، ورغبة الرأي العام في طيّ صفحة حروب ما بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، يُرجَّح أن تتزايد في بعض دوائر صنع القرار فرص الحوار والتفاوض والجهود الدبلوماسية.[23] وفي ضوء هذه التطورات، تبرز أهمية دراسة التغيّرات التي طرأت على هيئة تحرير الشام والجولاني خلال العقد الماضي.

الهوامش

1. برينيار ليا، "استراتيجيو الجهاد وعقائديّوه"، في: "جراح ذاتية: نقاشات وانقسامات داخل القاعدة وأطرافها"، تحرير: عساف موغادام وبريان فيشمان، مركز مكافحة الإرهاب في الأكاديمية العسكرية الأمريكية (ويست بوينت)، 2010، ص 101: https://apps.dtic.mil/sti/pdfs/ADA536531.pdf
2. شيراز ماهر، "السلفية الجهادية: تاريخ فكرة"، لندن: هيرست، 2016، ص 208.
3. عمر عبد الحكيم (أبو مصعب السوري)، "دعوة المقاومة الإسلامية العالمية"، 2004، ص 1060، https://archive.org/details/setsuko_20151004/page/n1059/mode/2up
4. للسياق، تجدر الإشارة إلى أن بعض مؤلفات السوري عن الجهاد الجزائري سبق أن طبعتها مكاتب الدعوة التابعة لجبهة النصرة ووزّعتها.
5. مارتن سميث، "الجهادي: أبو محمد الجولاني"، فرونت لاين، 1 و14 شباط/فبراير 2021، https://www.pbs.org/wgbh/frontline/interview/abu-mohammad-al-jolani
6. هيئة تحرير الشام، "تكريم أوائل دورة قيادة الكتائب بحضور قيادة الجماعة"، مؤسسة أمجد للإنتاج المرئي، 5 شباط/فبراير 2022، كان متاحاً سابقاً على: https://bit.ly/3LAu94l
7. جيروم دريفون وباتريك هاني، "كيف يتوطّن الجهاد العالمي وإلى أين يؤدي: حالة هيئة تحرير الشام، الامتياز السابق للقاعدة في سوريا"، المعهد الجامعي الأوروبي، فيزولي، إيطاليا، 2021، https://bit.ly/3NzSN6J
8. مقطع مصوّر على يوتيوب، 47:11 دقيقة، نشره "Abdullah human"، 12 آب/أغسطس 2020، https://www.youtube.com/watch?v=sEwFW4VgEsM
9. انظر: https://www.facebook.com/idleb.univ1/posts/3286350128250457
10. محمد حردان، "جماعة جهادية تسعى للنفوذ في إدلب السورية عبر المدارس الدينية"، المونيتور، 9 شباط/فبراير 2022، https://www.al-monitor.com/originals/2022/02/jihadist-group-seeks-influence-syrias-idlib-religious-schools
11. كول بونزل، "أبو قتادة الفلسطيني: لست جهادياً ولا سلفياً"، جهاديكا، 26 تشرين الأول/أكتوبر 2018، http://www.jihadica.com/abu-qatada-al-filastini-i-am-not-a-jihadi-or-a-salafi
12. هارون ي. زيلين، "أن تعيش طويلاً بما يكفي لترى نفسك وقد صرت الشرير: حالة أبي محمد المقدسي"، جهاديكا، 9 أيلول/سبتمبر 2020، http://www.jihadica.com/living-long-enough
13. إشارة إلى فرقة إسلامية مبكرة اشتُهرت بصرامتها العقدية واستعدادها لاستخدام العنف ضد المسلمين الآخرين.
14. هيئة تحرير الشام، "حقيقة عصام البرقاوي المعروف بأبي محمد المقدسي"، 10 تشرين الأول/أكتوبر 2020، https://bit.ly/3uFjHSd؛ وللترجمة الإنجليزية، انظر: https://aymennjawad.org/2020/10/hayat-tahrir-al-sham-general-sharii-council

15. هيئة تحرير الشام، "تخريج دورة القوات الخاصة بحضور قيادة الجماعة"، مؤسسة أمجد للإنتاج المرئي، 21 آب/أغسطس 2021، https://bit.ly/3qTgL3k

16. هيئة تحرير الشام، "تكريم أوائل دورة قيادة الكتائب"، https://bit.ly/3LAu94l

17. يحيى بن طاهر الفرغلي، "الطريق إلى الخلافة: تاريخ الحركات الجهادية من الإخوان المسلمين إلى الجهاد الشامي"، إسطنبول: دار الكتاب العالمي، 2020؛ وللسلسلة المصوّرة الأصلية: https://bit.ly/3NEQsHC

18. المصدر نفسه، ص 187 – 188.

19. هارون ي. زيلين، "تركيا تدعو إلى الاعتراف بإمارة طالبان الإسلامية"، تنبيه سياسي (Policy Alert)، معهد واشنطن، 18 آذار/مارس 2022،
https://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/turkey-calls-recognition-talibans-islamic-emirate

20. داود باشيه، "مالي: الحكومة تُكلّف المجلس الإسلامي الأعلى بالتفاوض مع آغ غالي وكوفا"، راديو فرانس إنترناسيونال، 19 تشرين الأول/أكتوبر 2021، https://bit.ly/3DuLuZG

21. الشيخ أبو عبد الله الشامي (عبد الرحيم عطون)، "الجهاد والمقاومة في العالم الإسلامي: طالبان نموذجاً"، مؤسسة أمجد للإنتاج المرئي، 17 أيلول/سبتمبر 2021، https://bit.ly/3LvdbnP

22. مارتن سميث، "مقابلة: جيمس جيفري"، فرونت لاين، 8 آذار/مارس 2021،
https://www.pbs.org/wgbh/frontline/interview/james-jeffrey

23. انظر على سبيل المثال الدعوات الأخيرة المتعلقة بجماعة نصرة الإسلام والمسلمين وحركة الشباب: محمد إبراهيم شيري، "حان الوقت للتواصل مع حركة الشباب"، وور أون ذا روكس، تشرين الأول/أكتوبر 2021،
https://warontherocks.com/2021/10/now-is-the-time-to-engage-al-shabaab-religious-leaders-and-clan-elders-can-help
؛ "مالي: تمكين الحوار مع التحالف الجهادي JNIM"، مجموعة الأزمات الدولية، 10 كانون الأول/ديسمبر 2021،
https://www.crisisgroup.org/africa/sahel/mali/306-mali-enabling-dialogue-jihadist-coalition-jnim
؛ سام ميدنيك، "هل تُوقف الحوارات المحلية مع الجهاديين العنفَ في بوركينا فاسو؟"، ذا نيو هيومانيتريان، 16 كانون الأول/ديسمبر 2021،
https://www.thenewhumanitarian.org/news-feature/2021/12/16/local-dialogues-with-jihadists-violence-Burkina-Faso
؛ حسان كوني وأورنيلا موديران، "الحوار مع الجهاديين: موريتانيا تُقدّم دروساً للساحل"، معهد الدراسات الأمنية، 1 نيسان/أبريل 2022،
https://issafrica.org/iss-today/dialogue-with-jihadists-mauritania-offers-lessons-for-the-sahel
؛ وسام ميدنيك، "بوركينا فاسو تدعم المحادثات المحلية مع الجهاديين: حوار مع وزير المصالحة"، ذا نيو هيومانيتريان، 27 نيسان/أبريل 2022،
https://www.thenewhumanitarian.org/interview/2022/04/27/dialogue-with-jihadists-interview-with-burkina-fasos-minister-of-reconciliation

3

مسار الجولاني نحو الجهادية السياسية

قاد أبو محمد الجولاني في البداية "جبهة النصرة"، الجماعة التي سبقت هيئة تحرير الشام، بوصفها مشروعاً تابعاً لدولة العراق الإسلامية، ثم بوصفها الفرع الرسمي لتنظيم القاعدة في سوريا[1]، لكنه بنى مع الوقت رؤية جهادية بديلة خاصة به. وقد يُعزى ذلك جزئياً، كما رجّح المثقف السوري المعارض ياسين الحاج صالح في مذكراته عن الثورة السورية الصادرة عام 2017، إلى أن الجولاني كان يتمتع "بفهم أفضل للبيئة السورية مقارنةً بتنظيم الدولة الإسلامية" أو بتنظيم القاعدة.[2]

وخلافاً لأسلوب العمل الذي كان سائداً بين الجهاديين آنذاك، بدأ الجولاني عام 2012 في بناء جبهة النصرة في سوريا على نحو يتجاوز التنظيم السري، إذ سعت الجماعة أيضاً إلى العمل مع فصائل مسلحة أخرى تقاتل نظام الأسد. ومن خلال الدفاع عن الناس في وجه الأسد، وتقديم الخدمات الاجتماعية، والامتناع عن استهداف الخصوم الأيديولوجيين في السنوات الأولى من الحرب، نجحت جبهة النصرة في ترسيخ نفسها داخل النسيج الاجتماعي المحلي. وظهرت الثمار الأولى لهذا النجاح حين واصلت المعارضة السورية والفصائل المسلحة دعم جبهة النصرة حتى بعد أن صنّفتها الولايات المتحدة منظمةً إرهابية أجنبية وامتداداً لدولة العراق الإسلامية في كانون الأول/ديسمبر 2012.[3]

ونتيجةً لشعبية جبهة النصرة، ولأن الجولاني كان يتجاهل طلبات أبي بكر البغدادي، زعيم دولة العراق الإسلامية آنذاك، بالشروع في تصفية الناشطين المعارضين والفصائل المسلحة التي يعدّها التنظيم غير إسلامية، أي معظمها إن لم يكن كلها من منظوره، أعلن البغدادي في نيسان/أبريل 2013 قيام "الدولة الإسلامية في العراق والشام"، ليُظهر أنه هو

من يقف وراء نجاحات جبهة النصرة، وليضع حداً لما عدّه عصياناً من الجولاني.[4] وبدلاً من الرضوخ لمحاولة البغدادي إخضاع الجبهة لسلطته، غيّر الجولاني اتجاهه وأعلن في الظاهر "تجديد" بيعته لزعيم القاعدة أيمن الظواهري.[5] والبيعة هي عهد الولاء لسلطة دينية أو سياسية أعلى. وبهذه الخطوة أخرج الجولاني جبهة النصرة من فلك تنظيم "داعش"، آملاً أن يحصل من الظواهري على حكم يصادق شكلياً على استقلال الجبهة عن التنظيم، وهو الحكم الذي أصدره الظواهري فعلاً. وأدى هذا النزاع في نهاية المطاف إلى أحد أكبر الانقسامات في تاريخ الحركة الجهادية، إذ اندلع الاقتتال بين الفصائل المسلحة وداعش مع مطلع عام 2014، وتبرّأ تنظيم القاعدة رسمياً من داعش.[6] وكان عدد من الأعضاء المحليين الأكثر تشدداً في جبهة النصرة، إلى جانب مقاتلين أجانب، قد انشقوا عنها وانضموا إلى داعش منذ عام 2013، أي قبل اندلاع الاقتتال.

أما جبهة النصرة، فواصلت العمل مع سائر مكوّنات الثورة المسلحة على نظام الأسد، ولا سيما الفصائل الإسلامية والسلفية مثل "حركة أحرار الشام الإسلامية" التي كانت أكبر داعم للجبهة داخل الثورة الأوسع. كما أن انفصال الجبهة عن داعش زاد من ثقلها بين الفصائل، رغم إعلانها الصريح آنذاك انتماءها إلى تنظيم القاعدة. غير أن الجبهة، سعياً منها إلى تأمين مستقبلها، بدأت في صيف عام 2014 وخريفه بمهاجمة الفصائل ذات التوجه الوطني في المعسكر المناهض للأسد، لتُحكم سيطرتها على القتال ضده وتتخلص من مشكلاتها الداخلية. وكان من أسباب ذلك أن الولايات المتحدة كانت تساعد تلك الفصائل على نزع الشرعية عن جبهة النصرة وترجيح كفة العناصر غير المتطرفة. وأبرز مثالين على ذلك قضاء الجبهة على "جبهة ثوار سوريا" في تشرين الأول/أكتوبر 2014، وعلى "حركة حزم" في آذار/مارس 2015.[7] وكان ذلك بداية سياسة انتهجتها جبهة النصرة والجماعات التي خلفتها، تقوم على تفكيك الأعداء والمنافسين والمعرقلين أو استيعابهم بالقوة.

وفي أواخر آذار/مارس 2015، تحالفت جبهة النصرة مع عدد من الفصائل الإسلامية والسلفية المحلية في غرفة عمليات مشتركة باسم "جيش الفتح" للسيطرة على محافظة إدلب[8]، التي أصبحت مركز الثورة على نظام الأسد. ومع سيطرة الجبهة وهذه الفصائل على الأرض، تعالت الدعوات إلى التوحّد.[9] وكانت إحدى الأفكار الكامنة وراء "جيش الفتح" إنشاء إدارة عسكرية وسياسية موحّدة تتجاوز الخلافات بين الفصائل. لكن صفة جبهة النصرة بوصفها الفرع الرسمي لتنظيم القاعدة في سوريا أصبحت مشكلة أكبر[10] وعقبة أمام جهود التوحيد الأوسع، ولا سيما بعد أن دخلت روسيا الصراع علناً في خريف عام 2015.[11] ومنذ

أواخر عام 2015 وطوال عام 2016، تنامى الشعور بأن بقاء الثورة يتطلب جهوداً أكثر جدية لتوحيد الصفوف.

وفي تموز/يوليو 2016 قررت جبهة النصرة فكّ ارتباطها العلني بتنظيم القاعدة من دون أن تستشير الظواهري مسبقاً.[12] وبدلاً من ذلك، وافق نائب الظواهري في سوريا، أحمد حسن أبو الخير، على هذه الخطوة في إطار تعميق اندماج الجبهة في البيئة المحلية، على أن يوافق عليها الظواهري لاحقاً.[13] وشرح عطون المنطق الكامن وراء هذه الخطوة بأنها مرحلة انتقالية تحتفظ فيها "جبهة فتح الشام" بروابط سرية مع الظواهري، تمهيداً لاندماج أوسع مع فصائل أخرى يشكّل قطيعة كاملة، ويكون في الوقت نفسه مقبولاً لدى الظواهري.[14] وفي إطار هذه المرحلة الانتقالية، غيّرت جبهة النصرة اسمها إلى "جبهة فتح الشام". غير أن الظواهري رفض الخطة حين علم بها.[15] وحتى قبل أن يعلن الظواهري رفضه لجبهة فتح الشام، كان بعض قدامى القاعدة داخل جبهة النصرة، وأبرزهم الأردنيان أبو جليبيب وأبو خديجة، مستائين من عدم استشارة الظواهري في تأسيس الجبهة الجديدة، فانفصلوا عنها.[16]

وإذا صحّت رواية عطون، فإن بعض قدامى القاعدة المعارضين لتأسيس جبهة فتح الشام أثّروا في نظرة القيادي في تنظيم القاعدة سيف العدل إليها، فنقل سيف العدل بدوره إلى الظواهري صورة خاطئة عن جبهة فتح الشام بوصفها مشروعاً يهدف إلى قطع العلاقة بالقاعدة. ويضيف عطون أن اتصالات لاحقة جرت أبدى فيها الظواهري رفضه لفكرة البيعة السرية بسبب التجربة مع تنظيم الدولة الإسلامية، وأكد أن أي حل حقيقي يتضمن فكّ الارتباط يتطلب اندماجاً فعلياً مع فصائل أخرى. ويبدو أن حركة أحرار الشام الإسلامية، حليفة جبهة النصرة ثم جبهة فتح الشام التي سبق ذكرها، كانت من الفصائل التي يُشترط انضمامها إلى الاندماج كي ينظر الظواهري في تأييده.

ولذلك يبدو أن الاندماج مع حركة أحرار الشام أصبح الهدف الأول للجولاني ولقيادة جبهة فتح الشام طوال تلك المرحلة. غير أن القيادة الرئيسية لأحرار الشام أحجمت في النهاية عن الاندماج، على الأرجح خشية أن يعني ذلك عملياً الذوبان تحت قيادة الجولاني، وأن يعرّض علاقاتها مع تركيا للخطر. وفي كانون الأول/ديسمبر 2016، تأسس جناح منشق عن أحرار الشام باسم "جيش الأحرار" بقيادة هاشم الشيخ[17]، وشكّل مع جماعات أخرى العمود الفقري لما أصبح "هيئة تحرير الشام" في كانون الثاني/يناير 2017.[18] وكانت هذه الخطوة المضادة سبباً في استمرار مشروع جبهة فتح الشام. وفي محاولة لإظهار نضج مزعوم وتجاوب مع الانتقادات، أصبح هاشم الشيخ أول قائد لهيئة تحرير الشام.[19] ثم أُلغي

هذا القرار في تشرين الأول/أكتوبر 2017 وعادت القيادة إلى الجولاني، بعدما تخلّت الهيئة عن الادعاء بأن الشيخ هو قائدها الفعلي.[20]

ورأى مؤيدو هيئة تحرير الشام ومنتقدوها على حد سواء أن تأسيسها مثّل القطيعة النهائية مع تنظيم القاعدة. أما العناصر الباقية من القاعدة، التي كانت قد قررت البقاء في جبهة فتح الشام حفاظاً على وحدة الصف، فقد انشقت ورفضت الانضمام إلى الهيئة. وأبرز مثال على ذلك سامي العريدي الذي ندّد بما عدّه عصياناً للظواهري.[21] وانتقد المنظّر الجهادي أبو محمد المقدسي أيضاً ابتعاد الهيئة عن القاعدة، ورأى في قرارها تمييعاً لمنهج الجماعة الأصلي القائم على الالتزام الصارم بتنظيم القاعدة وبالمواقف التقليدية للحركة الجهادية في مسائل التوحيد.[22] وفي أواخر خريف عام 2017، اعتقلت الهيئة عدداً من قدامى القاعدة الذين اعترضوا على مناورات الجولاني.[23] وبعد الإفراج عنهم في نهاية المطاف، شارك بعضهم في تأسيس فرع جديد لتنظيم القاعدة في سوريا باسم "حراس الدين"، أُعلن عن وجوده للمرة الأولى في شباط/فبراير 2018.[24]

وفي تشرين الأول/أكتوبر 2018، أسّس تنظيم حراس الدين غرفة عمليات "وحرّض المؤمنين" بالاشتراك مع جماعتين جهاديتين أصغر هما "جبهة أنصار الدين" التي انشقت عن الهيئة، و"جماعة أنصار الإسلام"، وهي جماعة عراقية تنشط اليوم أساساً في شمال غرب سوريا. ولأن الهيئة كانت تسيطر على المناطق التي ينشط فيها حراس الدين، فقد اشترطت عليه ألا يتجاوز سلطتها وسياساتها، وفي المقابل غضّت الطرف عنه، وربما قدّمت له دعماً لوجستياً في بعض مواقعه على خطوط الجبهة. وبحسب أبي الليث الحلبي، الذي قدّم نفسه بوصفه مقاتلاً في الهيئة ويدير إحدى القنوات المعروفة المؤيدة لها على تطبيق "تيليغرام"، فإن "الهيئة تؤمّن نفقات الطعام والذخيرة لـ[حراس الدين] يومياً".[25] وبهذه الطريقة سعت الهيئة في البداية إلى ضبط أنشطة حراس الدين ومنعه من الخروج عن حدود ما تحاول هي تحقيقه. وكما كتب المؤلف في أيلول/سبتمبر 2019: "إذا ازداد [حراس الدين] قوةً على نحو ملحوظ، فقد تسعى الهيئة إلى قمعه واعتقال قادته حفاظاً على قاعدة نفوذها. وبهذا المعنى، تبقى إمكانات نمو حراس الدين محلياً محدودة إلى حد ما".[26]

وهذا ما حدث فعلاً من نواحٍ كثيرة. ففي 12 حزيران/يونيو 2020، أسّس حراس الدين، ومعه شريكاه في غرفة عمليات "وحرّض المؤمنين"، غرفة عمليات جديدة باسم "فاثبتوا"، ضمّت أيضاً جماعتَي "تنسيقية الجهاد" و"لواء المقاتلين الأنصار".[27] وكان قائدا هاتين الجماعتين، أبو العبد أشداء وأبو مالك التلّي على التوالي، قد اختلفا مع الهيئة حول مسار الجهاد والعلاقة مع تركيا وقضايا الفساد. وعلى المنوال نفسه، وقبيل هذا الإعلان، نقل أبو

صالح الأوزبكي، قائد "كتيبة التوحيد والجهاد" الأوزبكية المتحالفة مع الهيئة، ولاءه من الهيئة إلى جبهة أنصار الدين، فعزّز بذلك هذه الكتلة الجهادية البديلة.

ونتيجةً لهذه التحولات في التحالفات وتعزيز الكتلة الجهادية البديلة التي يقودها حراس الدين، اعتقلت الهيئة الأوزبكي في 17 حزيران/يونيو والتلّي في 22 حزيران/يونيو 2020. فحذّرت غرفة عمليات "فاثبتوا" الهيئةَ من أنها "ستتحمّل التبعات في الدنيا والآخرة" إن لم تُفرج عن قادتها أو تقبل الاحتكام إلى محكمة شرعية.[28] وزعمت الهيئة بأثر رجعي، في تعميم صادر عن "لجنة المتابعة والإشراف العليا" التابعة لها، أن الأفراد يحتاجون إلى إذن لمغادرة الجماعة أو الانضمام إلى جماعات أخرى.[29] فقد رأت الهيئة في تشكيل غرفة العمليات الجديدة وفي الانشقاقات تحدياً لسلطتها لا يمكن قبوله. وكان المنطق نفسه، أي فرض السلطة والسيطرة، قد دفع الجماعة إلى قمع منافسيها من غير الجهاديين بين عامَي 2017 و2019. ومن هؤلاء حركة أحرار الشام الإسلامية التي قبلت في النهاية بسلطة الهيئة في شمال غرب سوريا، و"حركة نور الدين الزنكي" التي انفصلت عن الهيئة بعد أن انضمت إليها في البداية، واحتفظت بمنطقة نفوذ خاصة بها في ريف حلب الغربي قبل أن تفككها الهيئة.

وأدت اعتقالات الأوزبكي والتلّي، وما رافقها من غياب للشفافية، إلى اقتتال بين الهيئة وغرفة عمليات "فاثبتوا" في بلدات عرب سعيد والحمامة واليعقوبية والجديدة وأرمناز وكوكو والشيخ بحر خلال الأيام التالية، إلى أن أُبرمت هُدن بعد أن تغلبت الهيئة على حراس الدين وحلفائه.[30] ودفع ذلك الهيئة إلى أن تعلن في 26 حزيران/يونيو 2020 حظر تشكيل أي فصائل أو غرف عمليات عسكرية جديدة، وأن أي جهد عسكري لا يكون إلا عبر غرفة عمليات "الفتح المبين" التابعة لها.[31] وبناءً على ذلك أغلقت الهيئة المقرات العسكرية لحراس الدين، فانحلّت غرفة عمليات "فاثبتوا" فعلياً. ومنذ ذلك الحين لا يوجد دليل علني على أن الهيئة واصلت تقديم أي دعم عملياتي لحراس الدين، الذي اقتصرت عملياته منذئذ على هجمات سرية في مناطق أخرى من سوريا بعيدة عن إدلب ومحيطها. ومن بين الفصائل الأخرى في غرفة عمليات "فاثبتوا"، لم تتوصل إلى تفاهم مع الهيئة يسمح لها بمواصلة عملياتها العسكرية على خطوط الجبهة سوى جماعة أنصار الإسلام.

ويُبرز القضاء على الفرع الفعلي لتنظيم القاعدة في سوريا الفرق بين هيئة تحرير الشام وحركة طالبان. فالأخيرة تتجاهل فعلياً مسألة وجود القاعدة في أفغانستان، وتحاول تضليل الجميع بشأن هذا الوجود أو بشأن صلات التنظيم بها. أما الهيئة فقد لاحقت القاعدة في سوريا، وإن كان دافعها الأساسي إلى ذلك فرض سلطتها الخاصة، لا الرغبة في تقديم أوراق

اعتمادها في مكافحة الإرهاب أمام الغرب. ولذلك، وإن حاول بعضهم استخلاص استنتاجات متشابهة عن الجماعتين، فإن نهجيهما تجاه القاعدة مختلفان اختلافاً كبيراً.

ومنذ حملتها على حراس الدين، لاحقت الهيئة أيضاً مقاتلين أجانب مستقلين وجماعاتهم ممن رفضوا الخضوع لسلطتها. وأبرز مثال على ذلك تفكيكها في تشرين الأول/أكتوبر 2021 لجماعة "جنود الشام" المستقلة بقيادة مسلم الشيشاني، وجماعة "جند الله" بقيادة أبي فاطمة التركي.[32] ويصف "مزمجر الشام"، وهو ناقد إسلامي سوري للهيئة، منظومة سجونها الحالية بأنها "غوانتانامو إدلب"، إذ يُقال إن ما لا يقل عن 170 مقاتلاً أجنبياً محتجزون لديها.[33]

وفي الوقت نفسه، ثمة مقاتلون أجانب وجماعات إرهابية أجنبية مصنّفة خضعت لسلطة الهيئة.[34] وهذا يعني أن المقاتلين الأجانب والجماعات الأجنبية ما زالوا يمثلون مشكلة بالنسبة إلى الولايات المتحدة، حتى وإن كانت الهيئة قد تصدّت لمقاتلين أجانب ولجماعات إرهابية أجنبية أخرى تعدّها أمريكا عدوة لها.

الهوامش

1. رانيا أبو زيد، "الجهاد في الجوار"، بوليتيكو، 23 حزيران/يونيو 2014، https://www.politico.com/magazine/story/2014/06/al-qaeda-iraq-syria-108214؛ وأبو محمد الجولاني، "حول ميادين الشام"، مؤسسة المنارة البيضاء، 10 نيسان/أبريل 2013، https://bit.ly/3IRSMrf
2. ياسين الحاج صالح، "الثورة المستحيلة: فهم المأساة السورية"، شيكاغو: هايماركت، 2017، ص 185.
3. هارون ي. زيلين، "الالتفاف حول الجهادي"، فورين بوليسي، 11 كانون الأول/ديسمبر 2012، https://foreignpolicy.com/2012/12/11/rally-round-the-jihadist
4. أبو بكر الحسيني القرشي البغدادي، "إعلان الدولة الإسلامية في العراق والشام"، مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي، 9 نيسان/أبريل 2013، https://bit.ly/3tVnbRq
5. الجولاني، "حول ميادين الشام"، https://bit.ly/3IRSMrf
6. هارون ي. زيلين، "الاقتتال الداخلي بين فصائل المعارضة السورية"، وور أون ذا روكس، 7 شباط/فبراير 2014، https://warontherocks.com/2014/02/inside-baseball-on-syrian-rebel-infighting؛ وهارون ي. زيلين، "الحرب بين داعش والقاعدة من أجل الهيمنة على الحركة الجهادية العالمية"، ورقة بحثية رقم 20، معهد واشنطن، 2014، https://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/view/the-war-between-isis-and-al-qaeda-for-supremacy-of-the-global-jihadist
7. ليز سلاي، "صعود وسقوط مقاتل سوري معتدل: دروس للغرب"، واشنطن بوست، 5 كانون الثاني/يناير 2015، https://www.washingtonpost.com/world/middle_east/the-rise-and-ugly-fall-of-a-moderate-syrian-rebel-offers-lessons-for-the-west/2015/01/04/3889db38-80da-4974-b1ef-1886f4183624_story.html ؛ وليز سلاي، "حلّ فصيل سوري حصل على مساعدات أمريكية"، واشنطن بوست، 1 آذار/مارس 2015، https://www.washingtonpost.com/world/syrian-fighter-group-that-got-us-missiles-dissolves-after-major-defeat/2015/03/01/286fa934-c048-11e4-a188-8e4971d37a8d_story.html
8. جيش الفتح، "رسالة إلى أهلنا في إدلب"، 24 آذار/مارس 2015، https://bit.ly/387IqH3
9. تشارلز ليستر، "تأثير سوريا: انشقاقات القاعدة"، التيارات الراهنة في الأيديولوجيا الإسلامية، 11 كانون الأول/ديسمبر 2019، https://www.hudson.org/research/15533-the-syria-effect-al-qaeda-fractures
10. تشارلز ليستر، "كيف فقد تنظيم القاعدة السيطرة على فرعه السوري: القصة من الداخل"، CTC Sentinel، 11، العدد 2 (شباط/فبراير 2018)، https://ctc.usma.edu/al-qaida-lost-control-syrian-affiliate-inside-story

11. أندرو أوسبورن وفيل ستيوارت، "روسيا تبدأ الغارات الجوية على سوريا في أكبر تدخل لها في الشرق الأوسط منذ عقود"، رويترز، 30 أيلول/سبتمبر 2015،
https://www.reuters.com/article/us-mideast-crisis-russia/russia-begins-syria-air-strikes-in-its-biggest-mideast-intervention-in-decades-idUSKCN0RU0MG20150930

12. أبو محمد الجولاني، "إعلان تأسيس [جبهة فتح الشام]"، 28 تموز/يوليو 2016،
https://bit.ly/3iQfbur

13. الشيخ أحمد حسن أبو الخير، "كلمة"، مؤسسة المنارة البيضاء، 28 تموز/يوليو 2016،
https://bit.ly/3JZeHOB

14. أيمن جواد التميمي، "نزاع هيئة تحرير الشام – القاعدة: النصوص الأساسية (الجزء الثاني)"، 10 كانون الأول/ديسمبر 2017،
https://www.aymennjawad.org/2017/12/the-hayat-tahrir-al-sham-al-qaeda-dispute-primary-1

15. كول بونزل، "التخلي عن القاعدة: تحرير الشام ومخاوف سامي العريدي"، جهاديكا، 12 أيار/مايو 2017،
http://www.jihadica.com/abandoning-al-qaida

16. "أبو جليبيب وأبو خديجة الأردنيان ينشقان عن فتح الشام"، عربي 21، 22 آب/أغسطس 2016،
https://bit.ly/3Dpx6BP

17. أيمن جواد التميمي، "تأسيس هيئة تحرير الشام والتوترات الأشمل في الثورة السورية"، CTC Sentinel 10، العدد 2 (شباط/فبراير 2017)،
https://ctc.usma.edu/the-formation-of-hayat-tahrir-al-sham-and-wider-tensions-in-the-syrian-insurgency

18. هيئة تحرير الشام، "إعلان تأسيس هيئة تحرير الشام"، 28 كانون الثاني/يناير 2017،
https://bit.ly/3JZUuYX

19. الشيخ [هاشم الشيخ]، "الكلمات الأولى"، https://bit.ly/3LpXEFC

20. هيئة تحرير الشام، "قرار إداري"، 1 تشرين الأول/أكتوبر 2017، https://bit.ly/372KAqQ

21. بونزل، "التخلي عن القاعدة"، http://www.jihadica.com/abandoning-al-qaida

22. كول بونزل، "تمييع الجهاد: تحرير الشام ومخاوف أبي محمد المقدسي"، جهاديكا، 29 آذار/مارس 2017،
http://www.jihadica.com/diluting-jihad

23. ليستر، "كيف فقد تنظيم القاعدة السيطرة على فرعه السوري"،
https://ctc.usma.edu/al-qaida-lost-control-syrian-affiliate-inside-story

24. هارون ي. زيلين، "حراس الدين: جماعة القاعدة المغفول عنها في سوريا"، المرصد السياسي 3188، معهد واشنطن، 24 أيلول/سبتمبر 2019،
https://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/huras-al-din-overlooked-al-qaeda-group-syria

25. أيمن جواد التميمي، "مقابلة مع هيئة تحرير الشام"، 10 كانون الثاني/يناير 2019، كانت متاحة سابقاً على: http://www.aymennjawad.org/2019/01/hayat-tahrir-al-sham-interview ويحتفظ المؤلف بنسخة كاملة من هذه المقابلة.

26. زيلين، "حراس الدين"، https://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/huras-al-din-overlooked-al-qaeda-group-syria

27. غرفة عمليات "فاثبتوا"، "البيان التأسيسي"، 12 حزيران/يونيو 2020، https://jihadology.net/2020/06/12/new-release-from-so-be-steadfast-operations-room-founding-statement

28. غرفة عمليات "فاثبتوا"، "حول اعتداءات هيئة تحرير الشام على غرفة فاثبتوا"، 22 حزيران/يونيو 2020، https://bit.ly/3IVV9cJ

29. هيئة تحرير الشام، "تعميم صادر عن لجنة المتابعة والإشراف العليا"، 22 حزيران/يونيو 2020، https://bit.ly/3tW1xwe

30. "اتفاق بين هيئة تحرير الشام وغرفة فاثبتوا بشأن قرية عرب سعيد"، 26 حزيران/يونيو 2020، https://bit.ly/3IVvAZa؛ "اتفاق هدنة بين هيئة تحرير الشام وحراس الدين في الحمامة واليعقوبية والجديدة"، 26 حزيران/يونيو 2020، https://bit.ly/3wQx2K7؛ "اتفاق ثالث بين هيئة تحرير الشام وحراس الدين في منطقة حارم (أرمناز وكوكو والشيخ بحر)"، 26 حزيران/يونيو 2020، https://bit.ly/3DsqUZK

31. هيئة تحرير الشام، "حول توحيد الجهد العسكري"، 26 حزيران/يونيو 2020، https://bit.ly/3iTNIYN

32. هيئة تحرير الشام، "توضيح عاجل بخصوص أحداث التركمان"، 26 تشرين الأول/أكتوبر 2021، https://bit.ly/3qTG710

33. هارون ي. زيلين، "غوانتانامو إدلب: المقاتلون الأجانب في سجون هيئة تحرير الشام"، Syrian Jihadism، 11 حزيران/يونيو 2021، https://syrianjihadism.com/2021/06/11/idlibs-guantanamo-foreign-fighters-in-hts-prisons

34. "المقاتلون الأجانب: علاقتهم بهيئة تحرير الشام"، ليفانت 24، 3 نيسان/أبريل 2022، https://levant24.com/articles/2022/04/foreign-fighters-their-relation-with-hts

4

من السرية إلى الانخراط مع السكان المحليين

"بدأت المناطق المحررة، بإذن الله عز وجل، بخطة استراتيجية للتنمية الاقتصادية في المناطق المحررة. بدأت في المرحلة الأولى بالحفاظ على الموارد البشرية، ولذلك أُنشئت الجامعات في المناطق المحررة، وأولوية المناطق المحررة في الاهتمام بالمدارس والتعليم هي الحفاظ على الموارد البشرية، لأنها الركيزة الأساسية التي يقوم عليها أي نمو اقتصادي".

—هيئة تحرير الشام، "مشاركة القائد أبي محمد الجولاني في الجلسة الطارئة لمجلس الشورى العام"، مؤسسة أمجد للإنتاج المرئي، 24 تشرين الثاني/نوفمبر 2021، https://bit.ly/3qTAUGt

قد يظن من يقرأ الكلمات أعلاه أنها صادرة عن مسؤول في وزارة المالية لدولة ما. لكنها في الحقيقة الكلمة الافتتاحية التي ألقاها أبو محمد الجولاني في جلسة طارئة لمجلس الشورى العام التابع لحكومة الإنقاذ السورية، الذراع المدنية لهيئة تحرير الشام، في تشرين الثاني/ نوفمبر 2021، وعلّق فيها على تداعيات أزمة الليرة التركية وأثرها في سعر الخبز في إدلب.



الجولاني يناقش أزمة أسعار الخبز مع مجلس الشورى العام التابع لحكومة الإنقاذ السورية.

وتبدو هذه الكلمات بعيدة كل البعد عن خطاب الجولاني الحماسي حين أعلن تأسيس جبهة النصرة أواخر كانون الثاني/يناير 2012 "لإعادة سلطان الله إلى أرضه، والثأر للأعراض المنتهكة والدماء النازفة، ورسم البسمة على وجوه الأطفال والأرامل".[1] غير أن الجولاني، وإن صار يتناول اليوم طيفاً أوسع من القضايا، ما زال يستخدم حين يتعلق الأمر بالقتال نبرة لا تختلف كثيراً عن نبرة قائد في تنظيم الدولة الإسلامية أو تنظيم القاعدة. ففي شباط/فبراير 2020 مثلاً، قال لمجموعة من مقاتلي النخبة في الهيئة:

> "إن أعداء الله عز وجل يسعون في أهل السنة ليبيدوهم ويهجّروهم ويقتلعوهم من هذه الأرض. وتبعات خسارة هذه المعركة في أرض الشام كبيرة جداً، لا على أهل الشام وحدهم، بل على أهل السنة في المنطقة كلها. لذلك يا إخوتي، أنتم لا تدافعون فقط عن اثني عشر مليون نازح ولاجئ، وعن مليون شهيد، وعن دماء وأرض ونساء انتُهكت أعراضهن في سجون هذا النظام. لا، بل أنتم تدافعون عن أمة بأكملها".[2]

ولذلك، حتى وإن ابتعدت الهيئة عن استخدام التكفير، أي الحكم على المسلم بالردة، وركّزت على الجهاد المحلي بدلاً من الجهاد العالمي[3]، فإن رؤية قيادتها وأعضائها للعالم ما زالت متطرفة. لكن خلافاً للماضي، حين كانت الهيئة أكثر تمسكاً بالنقاء العقدي وأشد تشبثاً أعمى بتفاصيل أيديولوجيتها، صارت الجماعة والجولاني اليوم يدركان حدود السير على خطى تنظيمات مثل القاعدة أو الدولة الإسلامية. فتطبيق الشريعة في نظر الجولاني مشروع إداري

شامل، وليس مجرد تنفيذ لعقوبات الحدود. وكما قال في مقطع مصوّر نُشر في أيار/مايو 2020 خاطب فيه مقاتلي الهيئة: "يحصر بعض الناس مسألة تطبيق حكم الشريعة في إقامة بعض الحدود، كقطع اليد ورجم من يستحق الرجم وجلد شارب الخمر وما إلى ذلك. لكن هذا جزء بسيط جداً من المفهوم الكبير لتطبيق حكم الشريعة".[4]

لم يعد الجولاني مجرد قائد لجماعة إرهابية أو لفصيل مسلح، بل أصبح أيضاً رأس كيان سياسي غير مكتمل التكوين، ويترتب على ذلك مسؤوليات ونهج أكثر تعدداً يتجاوز الميدان العسكري. ولا يستحق الجولاني بطبيعة الحال الثناء على خطاب كهذا في حد ذاته، ولا سيما أن جماعته تحتكر اقتصاد إدلب، وأن معظم سكان المناطق التي تسيطر عليها فقراء بالكاد يستطيعون البقاء على قيد الحياة.[5] لكن الاهتمام بهذه الموضوعات وإبرازها في الخطاب يكشفان الطبيعة الأكثر تعقيداً للجولاني وللهيئة. فمنذ ظهوره على الساحة السورية قبل عقد، انتقل الجولاني من السرية إلى التواصل مع السكان المحليين، ثم مع المحيط العربي، وصولاً إلى محاولته اليوم مخاطبة الجمهور الغربي.

كانت أولى تصريحات الجولاني العلنية تسجيلاً صوتياً فحسب، جرى التلاعب به لإخفاء صوته. وقد تعرّض ذلك لانتقاد شديد من المنظّر الجهادي السوري أبي بصير الطرطوسي، المقيم في لندن منذ زمن طويل، والذي شارك في الجهاد ضد نظام حافظ الأسد أواخر السبعينيات ومطلع الثمانينيات. ففي 24 كانون الثاني/يناير 2012، وردّاً على أسئلة عدد من "الإخوة" عن رأيه في الجولاني وفي أول رسالة مصوّرة لجبهة النصرة، أبدى الطرطوسي على صفحته في "فيسبوك" المسمّاة "المعارضة الإسلامية للنظام السوري" تحفظات على الجماعة.[6] وكان من أشد انتقاداته أن الرجال الظاهرين في المقطع المصوّر، والجولاني تحديداً، كانوا جميعاً ملثّمين، في حين أن السوريين كسروا حاجز الخوف من نظام الأسد بتحدّيهم الطاغوت. واستناداً إلى تجربته الشخصية، ألمح الطرطوسي إلى أن النظام ربما يستخدم جبهة النصرة وسيلةً لتضليل الناس والإيقاع بهم، مستذكراً كيف استغل النظام فيما يبدو صورة عدنان عقلة، أحد قادة "الطليعة المقاتلة" الذي قاتل حافظ الأسد أواخر السبعينيات ومطلع الثمانينيات، للإيقاع بعشرات الأشخاص. ومن ثَمّ، فإن الواجب على من يقدّمون أنفسهم مجاهدين نصرةً للشعب السوري أن يطمئنوه إلى حقيقة هويتهم. وقد تفهّم الطرطوسي أن بعض المجاهدين مضطرون إلى تغطية وجوههم حفاظاً على سلامتهم، لكنه رأى أن من يمثّلون الجماعة ينبغي أن يظهروا ويكشفوا هويتهم، وهو ما قد يساعد على كسب تعاطف الناس مع قضية الجماعة. غير أن أسلوب الجولاني بقي على حاله إلى أن ظهر

مكشوف الوجه حين أعلن فكّ ارتباط جبهة النصرة بالقاعدة وتحوّلها إلى جبهة فتح الشام، قبل أن تصبح في النهاية هيئة تحرير الشام.[7]

وحين صنّفت الولايات المتحدة جبهة النصرة جماعةً إرهابية، لم تكن تحفظات الطرطوسي تعني شيئاً للفاعلين على الأرض. فقد أصدر "المجلس الوطني السوري"، الذي كان آنذاك واجهة الثورة، بياناً يرفض التصنيف الأمريكي. وأكد المجلس، الذي كان يتمتع حينها بنفوذ كبير في أوساط المعارضة السياسية، أن مجازر نظام الأسد هي الإرهاب الحقيقي في سوريا.[8] كما صرّح نائب المراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين في سوريا بأن قرار تصنيف جبهة النصرة "خاطئ جداً".[9] وأضاف العميد سليم إدريس، رئيس هيئة أركان الجيش السوري الحر آنذاك، أن جبهة النصرة ليست منظمة إرهابية، وأنها تعتمد في عملها على شبان سوريين متعلمين.[10] وأصدرت أكثر من مئة صفحة ثورية على "فيسبوك" بياناً يندّد بالتصنيف الأمريكي للجبهة منظمةً إرهابية، ودعت إلى تسمية الجمعة التالية، وهي اليوم الذي اعتاد فيه الثوار السوريون التظاهر أسبوعياً، باسم "لا للتدخل الأمريكي، كلنا جبهة النصرة".[11]

وبعد أن كسب الجولاني دعم السكان المحليين عام 2012، يمكن النظر إلى مقابلته مع برنامج "فرونت لاين" في ربيع 2021 بوصفها مدخلاً إلى التأثير في جمهور غربي أوسع. وهي امتداد طبيعي لدبلوماسيته العلنية التي سعى من خلالها إلى كسب القبول في المحيط العربي خارج سوريا، عبر ظهوره على قناة "الجزيرة" بين عامَي 2013 و2016. فقد منحت هذه المقابلات قضية الجولاني منبراً أوسع وأشكالاً أخرى من الشرعية. وفي ظهوره الأول في كانون الأول/ديسمبر 2013، يمكن تلمّس ملامح رؤيته، مع أنه كان لا يزال في فلك تنظيم الدولة الإسلامية والقاعدة: "الأمر لا يقتصر على المحاكم الشرعية، بل يشمل أيضاً رؤية شرعية لتوزيع الخدمات البلدية... من أجل دولة قائمة تؤدي وظائف الدولة الطبيعية بكفاءة: توفير الكهرباء، وبناء المستشفيات، وإصدار عقود الزواج، وغير ذلك".[12]

ومن المحطات البارزة الأخرى في سعي الجولاني إلى التقرب من جمهوره المحلي وتقريب جماعته منه، مؤتمر صحفي عقده في كانون الأول/ديسمبر 2015 مع صحفيين مؤيدين له، وظّف فيه لمصلحته خطاب الثورة إلى جانب خطاب الجهاد.[13] وفي آب/أغسطس 2017، كتب أنس خطاب، المسؤول الشرعي في الهيئة، رسالة تُجيز استخدام مصطلح "الثورة"، ردّ فيها على أبي محمد المقدسي الذي كان قد انتقد أعضاء الجماعة لاستخدامهم هذه اللغة.[14] ومنذ ذلك الحين ذهبت الجماعة أبعد من ذلك، فسعت إلى تقديم نفسها جزءاً أصيلاً من الثورة، مع أنها لم تكن طرفاً في الحراك الاحتجاجي الثوري الأصلي

عام 2011. وقد أظهر الجولاني إدراكه لحدود احتكار جماعته للثورة حين قال في كانون الثاني/يناير 2019: "نحن جزء من هذه الثورة، لكننا لسنا الثورة كلها".[15] غير أن سجلّ الجماعة في التعامل مع العناصر الثورية سيئ حتى اليوم. ولذلك، فبينما قد يقول الجولاني "لسنا الثورة كلها"، يرى كثير من الناشطين الثوريين، ولا سيما من سجنتهم الهيئة والجماعات التي سبقتها أو قتلتهم، أن هذا الكلام أجوف.

ولهذا السبب جزئياً، دأب الجولاني في الآونة الأخيرة على الظهور علناً مع مختلف الفاعلين في المناطق الخاضعة لسيطرة الهيئة، ليكسب مزيداً من الدعم والتعاطف، وليُظهر أن جماعته تصغي إلى ما يريده السكان وما يحتاجون إليه. ويمكن تتبّع بداية حملة الدبلوماسية العلنية هذه إلى عيد الفطر في حزيران/يونيو 2018، حين وزّع الجولاني الهدايا في حفل لأبناء الشهداء، وزار جرحى الحرب.[16] واللافت أن هذه المرحلة تزامنت مع توقف الولايات المتحدة عن استهداف الجولاني فعلياً في حملتها بالطائرات المسيّرة. وفي السنوات التالية، التقى الجولاني علناً بقادة عسكريين ومقاتلين، وبمقاتلين أجانب من السعودية وكردستان، وبشيوخ عشائر ووجهاء وأعيان، وبسكان عاديين، وبنازحين في المخيمات. كما حضر مسابقة لحفظة القرآن الكريم.



الجولاني يوزّع الهدايا في حفل لأبناء الشهداء في عيد الفطر، حزيران/يونيو 2018.

وتندرج كثير من اللقاءات التي يحضرها الجولاني في إطار سعيه وسعي جماعته إلى إظهار الاستجابة لقضايا الحكم وهموم الناس. ففي آب/أغسطس 2020 مثلاً، أقرّ الجولاني خلال لقاء مع نازحين من بلدة حلفايا بأن الهيئة ليست "دولة كبرى" وأن قدرتها على

مساعدة الناس محدودة، لكنها ستوجّه مواردها حيثما استطاعت. وأحد السبل إلى ذلك، كما قال في موضوع طرحه أكثر من مرة، هو الاكتفاء الذاتي.[17] وفي أيار/مايو 2021، صرّح الجولاني خلال لقائه وفداً من شيوخ العشائر بأن "المرحلة الحالية مرحلة إعداد وبناء مؤسسات" تمهّد لنصر قادم، وقال: "كل مؤسسة نبنيها في المناطق المحررة خطوة نحو دمشق... معركتنا على كل المستويات، وليست معركة عسكرية فحسب، لأن البناء أصعب من الحرب، وفيه مشقات كثيرة".[18] لذلك لم يكن مستغرباً أن يحضر الجولاني في كانون الثاني/يناير 2022 افتتاح طريق موسَّع يربط معبر باب الهوى بحلب، موضحاً أن هذه المشاريع لبنات في بناء حياة أفضل لسكان المنطقة. وقال: "الحرية تأتي من القوة العسكرية... والكرامة تأتي من المشاريع الاقتصادية والاستثمارية التي يعيش من خلالها الناس والمواطنون حياة كريمة تليق بالمسلمين".[19]

القيود



الجولاني يفتتح طريق حلب – باب الهوى بعد توسيعه، برفقة رئيس وزراء حكومة الإنقاذ علي كدة.

لا شك في أن هيئة تحرير الشام وذراعها المدنية الحاكمة، حكومة الإنقاذ السورية، تنفّذان مشاريع خدمية لتحسين حياة المقيمين في مناطقهما. غير أن ثمة قيوداً على ما تستطيعان فعله لتحسين حياة الناس، يعود بعضها إلى محدودية الموارد الاقتصادية في مناطق الهيئة، خلافاً للسنوات الأولى حين كان لجبهة النصرة نفوذ في محافظة دير الزور الغنية بالنفط،

ويعود بعضها الآخر إلى الانهيار الحاد في قيمة الليرة السورية والليرة التركية في السنوات الأخيرة.[20] وبينما يرى بعضهم أن حكومة الإنقاذ "لا يمكن عدّها فرعاً من إدارة الهيئة"[21]، يرى آخرون، مثل نسرين الزراعي وكرم الشعار، أن حكومة الإنقاذ "ليست أكثر من أداة لتوفير الأطر 'القانونية' والإدارية لاستيلاء الهيئة على اقتصاد المنطقة ومواردها".[22]

ويكشف حضور الجولاني المتزايد في أنشطة حكومة الإنقاذ، كمشاركته أواخر كانون الثاني/يناير 2022 في جلسة طارئة بشأن الأوضاع الشتوية في مخيمات النازحين، أُعلن فيها إطلاق حملة "دفؤكم واجبنا"[23]، أن حكومة الإنقاذ ليست سوى ورقة توت، فقد أُنشئت أصلاً لإخفاء دور الهيئة بوصفها صاحبة السيطرة الفعلية على كل شيء. ومع أن الهيئة لا تتدخل في كل تفاصيل عمل الحكومة، فإن الحكومة لا يُسمح لها بتنفيذ أي قرار يتعارض مع الهيئة.[24] لذلك لم يكن مستغرباً أن يعلن الجولاني، بعد كلمته التي أطلق فيها حملة "دفؤكم واجبنا" في مخيمات سرمدا ودير حسان، أن الهيئة ستقود الحملة إلى جانب حكومة الإنقاذ.[25] وعلى المنوال نفسه، فإن شخصيات بارزة مثل مظهر الويس، أحد أبرز منظّري الهيئة، وأنس عيروط، عضو المجلس الأعلى للإفتاء المدعوم من الهيئة، عضوان على التوالي في اللجنة القضائية العليا التابعة لوزارة العدل في حكومة الإنقاذ، وفي وزارة الأوقاف والدعوة والإرشاد التابعة لها.[26] وتشير شائعات أيضاً إلى أن حازم، شقيق الجولاني نفسه، عمل قاضياً في سرمدا، ورئيساً للشؤون المالية في الهيئة العامة للزكاة، وقيادياً في وكالة "إباء" الإخبارية التابعة للهيئة حين كانت ناشطة.[27] ومن المرجح أن كثيرين غيرهم من الشخصيات الأقل شهرة في الهيئة ينشطون أيضاً داخل حكومة الإنقاذ.

ونتيجة لهذه الدينامية، تتجه الهيئة على نحو متزايد إلى احتكار قطاعات مختلفة، بدلاً من أن تتيح الحرية الاقتصادية للسكان المحليين الذين يحاولون كسب رزقهم.[28] وتسيطر الهيئة وأعضاؤها على الكيانات التالية في هذه القطاعات:

- القطاع المالي: المؤسسة العامة لإدارة النقد وحماية المستهلك، و"شام بنك".[29]
- المعابر الحدودية: هيئة إدارة المعابر، والإدارة العامة للمعابر.
- الطاقة: شركة "وتد" للبترول، وشركة "كاف" التجارية، وشركة "الشهباء".
- الإنترنت: المؤسسة العامة للاتصالات التابعة لحكومة الإنقاذ، وشركة "سيريا كونكت" (SYR Connect).
- الإعلام والإعلان: شركة "كرييتف إنسبشن" (Creative Inception).
- الاتصالات: شركة "سيريا فون" (Syria Phone).

يُضاف إلى ذلك أن السكان المحليين يشكون من استيلاء الهيئة على الأراضي بموجب نسختها الخاصة من "الاستملاك للمنفعة العامة"، لتنتزع العقارات وتحوّل المناطق إلى أحياء راقية لمصلحة قادتها، على نحو يطرد سكانها الأصليين.[30] ففي تموز/يوليو 2021 مثلاً، قررت الهيئة وحكومة الإنقاذ، بحسب ما يُقال، هدم سوق دارة عزة وتحويله إلى مركز تجاري، فاندلعت احتجاجات محلية.[31] وفي النهاية هُدم السوق وبُني مكانه مركز تجاري. كما يشارك قادة الهيئة في عدد من مشاريع البناء. ولأن حكومة الإنقاذ المدنية جزء من منظومة الحكم التي تديرها الهيئة، فإن من يشغلون المناصب الرئيسية قادرون على استغلال هذه العلاقة على حساب السكان العاديين في مناطق الهيئة. إذ "تُنفَّذ معظم عمليات الاستثمار والمشاريع التي يملكها قادة الهيئة عبر وسطاء مدنيين مقرّبين منهم، يعملون واجهةً يختبئ خلفها المستثمرون الحقيقيون".[32]

وبحسب مجموعة الأزمات الدولية، أدى ذلك إلى أن "النشاط الاقتصادي للهيئة... أوجد شبكة من السوريين في أنحاء الشمال الغربي تعتمد على الجماعة ولها مصلحة في بقائها".[33] ولهذا فإن وعد الجولاني بدعم سعر الخبز، في كلمته عن الوضع الاقتصادي في إدلب بعد انهيار الليرة التركية في تشرين الثاني/نوفمبر 2021[34]، لا يحل المشكلة على المدى البعيد، بل يزيد تدهور مستوى معيشة سكان المنطقة، لأنهم يصبحون أكثر اعتماداً على الهيئة في معيشتهم.

وقد أدى احتكار القطاعات المختلفة إلى احتجاجات، لأن الهيئة تستطيع التحكم في أسعار السلع. ففي منتصف تشرين الأول/أكتوبر 2021 مثلاً، وبعد أن رفعت شركة "وتد" للمحروقات المرتبطة بالهيئة سعر أسطوانة الغاز للمرة الخامسة خلال شهر واحد، خرج السكان إلى ساحة الساعة وسط مدينة إدلب احتجاجاً على الغلاء الفاحش.[35] وكان من بين الهتافات الساخرة الكثيرة في الاحتجاج: "غرقنا بإنقاذكم!"، في إشارة إلى الإدارة المدنية للهيئة.[36]

وعلى المنوال نفسه، فإن إجراءات يُفترض أنها تساعد حكومة الإنقاذ على تمويل مشاريع مختلفة في مناطقها تحمل طابعاً عقابياً قد يضيّق كثيراً على مصادر رزق الناس. فقد أصدرت المديرية العامة للنقل في حكومة الإنقاذ مطلع عام 2018 قراراً يُلزم بتسجيل جميع الدراجات النارية خلال شهر واحد، تحت طائلة مضاعفة رسوم التسجيل وحجز الدراجة.[37] ثم قررت حكومة الإنقاذ في 4 نيسان/أبريل 2021 مصادرة المركبات غير المسجّلة.[38] ودفع ذلك أشخاصاً مثل ديوب، كما نقل الصحفي جلال سليمان، إلى تسجيل دراجته النارية ودفع الغرامة، لكنه "سيضطر إلى اقتراض المال" لفعل ذلك، فيقع في الدَّين.[39] وهذا عبء ثقيل

على أمثال ديوب، الذين يمثل وضعهم حال كثيرين في مناطق الهيئة، لأن دراجته النارية وسيلة تنقّله الوحيدة، ومن دونها لن يستطيع العمل وإعالة زوجته وأطفاله الستة.[40]

وقد بلغت الأوضاع في مناطق الهيئة حداً من السوء صار معه مشهد الأطفال الكادحين في الشوارع أمراً مألوفاً.[41] فبعضهم يُجبر على العمل في التهريب، فيما يبيع آخرون المناديل والعلكة والحلوى والذرة والحمص على أرصفة المدن والقرى ومخيمات النازحين.[42] وفوق الضغوط الاقتصادية، تُجبر الهيئة الأطفال على حضور معسكراتها التدريبية ليصبحوا جنوداً أطفالاً. ويُظهر مقطع مصوّر بعنوان "جيل الفاتحين"، اطّلع عليه المؤلف ويُرجَّح أنه أُعدّ للاستخدام الداخلي فقط، أطفالاً يؤدون تدريبات عسكرية في أحد معسكرات الهيئة أواخر تشرين الثاني/نوفمبر 2020.[43] ويتضمن المقطع أيضاً كلمة ألقاها منظّر الهيئة شريح الحمصي حول نار المخيم. وليس هذا مجرد دعاية، ففي أواخر أيار/مايو 2020، وبمناسبة عيد الفطر، استقبل الجولاني مجموعة من الأطفال للاحتفال بختام العيد، وقال لهم في كلمته: "كلنا على طريق الشهادة". وفي المقطع نفسه، أهدى طفلاً صغيراً مسدساً لعبةً بين هدايا أخرى للأطفال.[44] وفي ختام كلمته قال الجولاني إن الشهداء "سبقونا إلى الجنة"، وإنه وسائر الحاضرين "بإذن الله على إثرهم".[45] وتكشف هذه التصريحات النهج العسكري الذي يتعامل به الجولاني والهيئة مع الأطفال في المناطق الخاضعة لسيطرتهما.

وعموماً، كلما اتجه الجولاني أكثر إلى إدارة الأرض، إلى جانب الأنشطة العسكرية التي تمارسها الهيئة أصلاً، ازداد احتمال انزلاقه إلى صراعات محلية على الشرعية إن عجزت الهيئة عن تحسين حياة الناس على المدى البعيد. ونتيجة لذلك، تبدو الهيئة في نشاطها بين السكان المحليين أشبه فأشبه بحكومة عربية تقليدية.

السلطوية

وبعيداً عن المجال الاقتصادي، ثمة قيود على قدرة السكان المحليين على التصرف من دون أن يتعرضوا للمضايقة أو السجن. فحكومة الإنقاذ التابعة للهيئة ليست ديمقراطية، وهو نظام حكم ما زالت الجماعة ترفضه.[46] ولا توجد رقابة حقيقية على سلطة الهيئة أو الجولاني. ومع أن حكومة الإنقاذ تُجري انتخابات لوزاراتها التكنوقراطية ولمجلس الشورى، فإن قائمة المرشحين المؤهلين تُختار مسبقاً، ولا يُسمح بالتصويت إلا لأشخاص بعينهم، ولا يحق للنساء التصويت أو تولّي أي منصب رفيع في حكومة الإنقاذ.[47] ولذلك فالعملية برمّتها نخبوية

وذكورية، ومعظم سكان مناطق الهيئة لا دور لهم فيها ولا في اختيار من يضع قواعد المجتمع. فالسكان المحليون يعيشون رهن أهواء هذه الفئة الضيقة.



التصويت على تثبيت علي كدة رئيساً لوزراء حكومة الإنقاذ، كانون الأول/ديسمبر 2021.

يُضاف إلى ذلك أن هذا النظام يخدم السكان السنّة المحليين على حساب الأقليات المقيمة في مناطق سيطرة الهيئة. فكثير من رسائل الجولاني يدور حول الخطر الوجودي الذي يواجهه السنّة والدور الذي تنسبه جماعته إلى نفسها في حمايتهم. ففي أحد أول ظهوراته بعد إعلانه خروج جماعته من تنظيم القاعدة عام 2016، قال لقناة الجزيرة: "قضية أهل الشام... هي قضية الإسلام والدين والحفاظ على أهل السنة". وأضاف: "دخلنا اليوم مرحلة الدفاع عن الوجود، وهذا حال أهل السنة في الشام. ولو نجح، لا قدّر الله، مشروع "الروافض" (تعبير تحقيري للشيعة) المعادي لأهل السنة، لو نجح في الشام، فسيمتد ليطال أهل السنة في المنطقة كلها".[48] وقال الجولاني في عيد الأضحى عام 2018: "اعلموا أن مصالح أهل السنة وحمايتهم وتوفير الأمن والحياة الكريمة لهم في ظل الشريعة السمحة، هي حقاً في مقدمة أولوياتنا".[49] وحتى بعد تأسيس الهيئة، واصل الجولاني ربط المعارك في سوريا بمصير السنّة جميعاً في المنطقة، كما في كلمته أمام عناصر قوات النخبة في الهيئة في شباط/فبراير 2020: "أنتم لا تدافعون فقط عن اثني عشر مليون نازح ولاجئ [من أهل السنة]، وعن مليون شهيد، وعن دماء وأرض ونساء انتُهكت أعراضهن في سجون هذا النظام. لا، بل أنتم تدافعون عن الأمة بأكملها".[50]

وانسجاماً مع ذلك، أصدر أبو الفتح الفرغلي، أحد كبار منظّري الهيئة، في حزيران/يونيو 2021 سلسلة فتاوى على "تيليغرام" ردّاً على أسئلة الباحث البريطاني أيمن جواد التميمي بشأن موقف الجماعة من الأقليات المختلفة التي تعيش في مناطقها. فالمسيحيون في نظرها "مستأمنون"، أي غير مسلمين يقيمون في ديار الإسلام إقامة مؤقتة بضمان الأمان مع أنهم لا يدفعون الجزية، أما العلويون والدروز فيُعَدّون مرتدين.[51] ومع أن الحكم على المسيحيين قد يبدو أخف وطأة من الحكم على العلويين والدروز، فإن الهيئة صادرت ما لا يقل عن 550 عقاراً من المسيحيين، بينها منازل ومحال تجارية، لم يُعَد أيٌّ منها منذ بدء هذه الممارسة عام 2015.[52] والأسوأ من ذلك أن الهيئة أجبرت الدروز في قرى جبل السمّاق بريف إدلب الشمالي على اعتناق الإسلام السني، وصادرت كذلك ممتلكات المقيمين منهم خارج المنطقة.[53] وفي حزيران/يونيو 2015، قُتل ما لا يقل عن عشرين درزياً في مجزرة وقعت على خلفية نزاع حول مصادرة أراضٍ في قرية قلب لوزة.[54] واليوم يشغل أعضاء أويغور في "كتيبة الغرباء التركستان"، وهي جماعة مقاتلين أجانب يقودها الأويغور ومتحالفة مع الهيئة، كثيراً من العقارات في قلب لوزة التي يملكها دروز يقيمون خارج المنطقة، ويقول السكان المحليون إن هؤلاء الأويغور يعاملون السكان الدروز الأصليين بعدائية وإساءة.[55] كما صادرت الهيئة وجماعات مسلحة أخرى عقارات في بلدتَي الفوعة وكفريا، اللتين كان يسكنهما شيعة اثنا عشريون أُجلوا منهما عام 2018.[56]

وإذا كان وضع الأقليات مأساوياً، فإن كثيرين من السنّة أيضاً يبدون استياءهم من ضيق أفق العملية السياسية، إذ يحمل بعضهم آراء أيديولوجية تختلف عن آراء الهيئة وحلفائها بشأن طريقة إدارة المجتمع. وبحسب تقرير مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة الصادر في آذار/مارس 2021 عن الاحتجاز التعسفي في سوريا، ثمة ثلاث وسبعون حالة موثّقة لاحتجاز ناشطين وصحفيين وعاملين في الإعلام انتقدوا الهيئة.[57] ويرصد التقرير أيضاً أربعاً وستين حالة "إخفاء" لأفراد على يد الجماعة.[58] ومن ذلك مثلاً أن سامر السلّوم أُخفي في 25 كانون الأول/ديسمبر 2017، وبحسب شقيقه محمد، أعدمته الهيئة عام 2019 مع تسعة عشر آخرين بسبب انتقادهم للجماعة.[59]

وقد انتقد كثير من سكان مناطق الهيئة غياب الشفافية في هذه الإجراءات، إذ لا تُذكر أسباب الاعتقال، وتُعقد محاكمات صورية، ويُساء إلى المعتقلين.[60] ويقول محامٍ في إدلب: "تُنفَّذ أحكام الإعدام في سجون سرية من دون محاكمة... ولا يحظى المعتقلون بمحاكمة علنية، ولا يعرفون الأدلة التي بُني عليها الحكم ضدهم".[61] ويؤكد هذه الصورة عن غياب الشفافية القضائية مقالٌ كتبه أبو اليقظان المصري، وهو رجل دين مصري كان في صفوف

الهيئة سابقاً، تناول فيه أيضاً التعذيب في السجون.[62] ومن بين الاحتجاجات الكثيرة التي نظّمها السكان، احتجاج في مخيم مشهد روحين للنازحين بريف إدلب في 20 آب/أغسطس 2021، طالب فيه المحتجون بالإفراج عن المعتقلين لدى الجماعة.[63] وجرت احتجاجات مماثلة في الأتارب ومخيم البركة للنازحين أواخر تشرين الأول/أكتوبر 2021، وفي دير حسان أواخر كانون الثاني/يناير 2022.[64] وفي المقابل، يُقال إن أشخاصاً شاركوا في الاحتجاجات أو كتبوا تعليقات على الإنترنت أُجبروا على نشر مقاطع مصوّرة يعتذرون فيها للهيئة ولقائدها الجولاني.[65]

وبينما يقول الجولاني إنه "لا يوجد تعذيب" في سجون الهيئة[66]، يشير مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة إلى أدلة على أن الجماعة "استهدفت المدنيين المعارضين، وعذّبتهم وأساءت معاملتهم بشكل روتيني في مرافق الاحتجاز".[67] وبحسب التقرير، فإن أسوأ هذه المرافق سمعةً في سوء المعاملة والتعذيب هي "قسم شاهين" في سجن إدلب المركزي، وسجن حارم المركزي، وسجن "العقاب" المؤلف من كهوف وزنازين تحت الأرض في منطقة جبل الزاوية.[68] واستناداً إلى 113 شهادة مباشرة عن التعذيب أو المعاملة اللاإنسانية، "وصف الضحايا احتجازهم في زنازين مكتظة وغير صحية، ساعد فيها انعدام الرعاية الطبية على انتشار الأمراض المعدية".[69] وفوق ذلك، شملت أساليب التعذيب "الضرب المبرح، ووضع المحتجزين في 'التابوت' أو في 'الدولاب'، أو تعليقهم من أطرافهم".[70] والأشد إيلاماً أن عدداً من المحتجزين الذكور السابقين، بحسب التقرير، "وصفوا تعرّضهم للتحرش الجنسي، وإجبارهم على التعري، وصعق أعضائهم التناسلية بالكهرباء، واغتصابهم في مرافق الهيئة".[71] وقدّمت تقارير أخرى أيضاً أدلة قوية على أن نساءً يتعرضن للاختطاف والتعذيب والاغتصاب في سجون الهيئة.[72] واستناداً إلى هذه المعطيات وغيرها مما ورد في تقرير الأمم المتحدة، خلص مجلس حقوق الإنسان إلى أن ممارسات الهيئة في سجونها ترقى إلى "جريمة (جرائم) ضد الإنسانية تتمثل في التعذيب".[73]

ولا تقتصر هذه الممارسات على الناشطين العاديين، بل تطال أيضاً خصوم الهيئة الجهاديين في تنظيمَي القاعدة والدولة الإسلامية. فبحسب "مزمجر الشام"، يختص سجن البادية في مدينة إدلب بسجناء القاعدة، بينما يُحتجز أعضاء تنظيم الدولة الإسلامية في سجن الزنبقي غرب محافظة إدلب.[74] ويُقال إن نزلاء هذه السجون تعرّضوا لأنواع مختلفة من التعذيب، منها "الشَّبح" (التعليق من السقف أو من إطار الباب أياماً)، وتكسير الأطراف، والصعق بالكهرباء، وقلع الأظافر.[75] وقد نشر أحد هؤلاء السجناء، الأمريكي بلال عبد الكريم

الذي أُفرج عنه لاحقاً، سلسلة مقاطع مصوّرة يشرح فيها كيف يجري التعذيب.[76] ويُقال إن الهيئة عذّبت أيضاً زوجات هؤلاء السجناء الجهاديين.[77]

أما النساء من خارج الحركة الجهادية، فإن من أبرز الأدوات التي تستخدمها الهيئة للتحكم في حياتهن والتضييق عليهن جهاز "الحسبة"، أي الشرطة الأخلاقية. ويمكن طبعاً أن تطال الحسبة الرجال أيضاً، لكن جزءاً كبيراً من عملها يقوم على مراقبة النساء في الأماكن العامة. وقد مرّ جهاز الحسبة في الهيئة بمراحل مختلفة، من "سواعد الخير" الذي تأسس في حزيران/يونيو 2017[78]، إلى "مركز الفلاح" في أيار/مايو 2020.[79] ومنذ آب/أغسطس 2021 أصبح جزءاً من وزارة الأوقاف والدعوة والإرشاد في حكومة الإنقاذ. وفي إطار هذا التحول، أطلقت الوزارة حملة باسم "حرّاس الفضيلة"، شملت فعاليات ومسابقات ولوحات إعلانية متعددة في الشوارع، لترسيخ خطاب يحدد مظهر المرأة وسلوكها على نحو ضيق ومعادٍ للمرأة.[80] وتوضح الصور أدناه الخيط الذي يربط بين المراحل المختلفة، إذ لم يتغير نوع الخطاب، حتى وإن أرادت الهيئة الإيحاء بأنه تغيّر بعد أن صار الجهاز تابعاً لذراعها المدنية الحاكمة.



أعضاء في "سواعد الخير" يستخدمون لوحة إعلانية للترويج لقواعد مظهر المرأة، ومنها وجوب النقاب الكامل.

وبحسب الصحفي السوري محمد حردان، فإن من مهام الحسبة "منع الاختلاط بين الرجال والنساء في الأماكن العامة عبر إقامة نقاط مراقبة في الحرم الجامعية والحدائق، ومنع الرجال من بيع الملابس النسائية، وحظر عرض المجسّمات (المانيكان) في المحال

التجارية، ومراقبة صالات الأفراح، وحظر الموسيقى والتدخين. ويُعرف عنها أيضاً تدخلها في ملابس النساء وإكسسواراتهن، وإجبارها المنظمات الإنسانية على الفصل بين موظفيها بحسب الجنس".[81] وقد أطلق ذلك يد دوريات الحسبة التابعة للهيئة في ضرب المخالفين أو جلدهم أو سجنهم. ووثّق تقرير مجلس حقوق الإنسان الأممي المذكور آنفاً حالات كثيرة احتجزت فيها الهيئة نساءً لسفرهن من دون محرم أو بسبب لباس عُدّ غير لائق.[82] وفيما يلي بعض الأمثلة فقط:

- الاعتداء على فتيات في سوق مدينة إدلب في حزيران/يونيو 2017.[83]
- اعتداء عنصر نسائي في الحسبة بالضرب على مديرة الامتحانات في جامعة إدلب بسبب خلاف على لباسها.[84]
- اعتقال سائقي حافلات تابعين لمنظمة "بنفسج" غير الحكومية، وضرب معلمين وطلاب في ثانوية العروبة ومعهد فيثاغورس ومركز التنمية والتكنولوجيا بذريعة الاختلاط المحرّم بين الرجال والنساء.[85]
- توجيه عناصر الحسبة تهماً أخلاقية إلى امرأة وتاجر لوجودهما وحدهما داخل المحل، ولوم البائع "لاستقبالها دون محرم ولعدم وجود امرأة داخل المحل لتبيع النساء".[86]
- إيقاف دورية للحسبة امرأةً كانت تتنزه في الحديقة العامة بإدلب، ثم نهرها عناصر نسائية في الحسبة بسبب لباسها "الضيق واللافت للنظر"، في توبيخ "استمر لأكثر من عشر دقائق وسط الحديقة".[87]



لوحة إعلانية من حملة "حرّاس الفضيلة" التابعة لحكومة الإنقاذ، أيلول/سبتمبر 2021. وتتضمن هذه اللوحات آيات قرآنية تحثّ النساء على الاحتشام في اللباس وتجنّب التبرّج.

ويرى الأكاديمي والباحث في التربية ريمون المعلولي أن هذا النوع من التصرفات مقبول حتى لدى الأقل تشدداً في معتقداتهم الدينية، بسبب النزعة الذكورية. فالقوى المسيطرة في الشمال، وفق ما يرى المعلولي، تعتمد على الفتاوى "المتزمتة التي لا علاقة لها بجوهر الدين الإسلامي"، والتي "تناسب النزعة الذكورية لديهم أساساً"، ومن هنا "توضع الضوابط التي يفرضونها عن طريق خلطة ما بين الاجتهادات الدينية الخاطئة" و"العادات والثقافة التقليدية الذكورية".[88] ولهذا تجد النساء صعوبة في ممارسة أبسط الأمور، مثل قيادة السيارة. فبحسب تقرير للصحفية هاديا منصور، "رغم عدم وجود قانون أو تعميم يمنع النساء من قيادة السيارة في الشمال السوري... لا تزال القيادة حكراً على الرجال من وجهة نظر المجتمع".[89] وتقول أسماء المحمود، وهي عاملة في منظمة غير حكومية في المنطقة، إنها واجهت "كثيراً من المضايقات الأمنية على الحواجز"، وتعرّضت "للأسئلة المتعلقة بوجودها داخل السيارة بمفردها ودون محرم".[90]

وقد دفع هذا الاستياء من تعامل الهيئة مع السكان المحليين وسائل الإعلام المعارضة إلى الاعتراض عليها بدرجات متفاوتة على مر الزمن. وأشهر هذه الحالات قضية "راديو فريش"، وهي محطة يديرها ناشطون محليون في بلدة كفرنبل، أُسست عام 2013 في أعقاب الانتفاضة الثورية. ففي كانون الثاني/يناير 2016، اقتحمت جبهة النصرة، سلف الهيئة، مقر "راديو فريش" بدعوى "ميوله العلمانية ودعمه للمرتدين".[91] وأسفر ذلك عن

اعتقال مؤسس المحطة رائد فارس وزميله هادي العبد الله، وإيقاف بث المحطة، ومصادرة معداتها، ومسح أرشيفها بالكامل.[92] وبسبب مواصلة فارس انتقاد الهيئة، اغتالته الهيئة مع زميله حمود جنيد في تشرين الثاني/نوفمبر 2018. وبحسب فارس، فقد ضايقه بلال الشواشي، وهو مقاتل أجنبي تونسي والمسؤول الشرعي العام للهيئة في كفرنبل، قبل عام من اغتياله، وحاول نفيه من بلدته.[93] وجاء ذلك بعد محاولات فاشلة عديدة لاغتياله نفّذتها الهيئة والجماعات التي سبقتها في السنوات السابقة.[94]

وفي حالة أقل عنفاً لكنها لا تقل دلالة، أغلقت الهيئة في 24 آب/أغسطس 2021 مكتب قناة "أورينت" الإخبارية المعارضة في إدلب، بذريعة مبهمة هي "انحياز القناة وسياستها العدائية تجاه الفصائل المحلية".[95] وهذا الإجراء من بعض الوجوه تتويج لسياسات الهيئة الرامية إلى كبح المعارضة، عبر إلزام جميع الصحفيين العاملين في مناطقها بالحصول على بطاقات صحفية.[96] ومع أن هذا القرار هو بلا شك وسيلة لإضفاء طابع رسمي على هياكل الحكم في الهيئة على غرار ما قد يوجد في أي دولة، فإنه أيضاً أداة بيروقراطية لمنع أطراف معينة من الحصول على البطاقة. وإذا حاول أحد هؤلاء العمل الصحفي من دونها، يمكن للهيئة معاقبته بالغرامة أو السجن، فتُسكت بذلك الصحفيين الذين تعدّهم مصدر إزعاج لها.



شخص يتسلّم بطاقة صحفية من المديرية العامة للإعلام التابعة لحكومة الإنقاذ، حزيران/يونيو 2021.

وقد تمكّن كثيرون بالطبع من الحصول على بطاقات صحفية[97]، لكن آخرين، كالذين ما زالوا مرتبطين بـ"راديو فريش" ومنهم مديرها التنفيذي الحالي عبد الله كليدو، عالقون في متاهة بيروقراطية. يقول كليدو: "نحتاج إلى مئة موافقة".[98]

وأخيراً، هناك قضية الناقد المؤيد لتنظيم القاعدة والمعارض للهيئة، الذي يكتب باسم مستعار هو "ردّ عدوان البغاة" على "تيليغرام"، ويدير حسابه شخص يسمّي نفسه "أبو عبد الله الشامي". ففي 16 تشرين الثاني/نوفمبر 2021 أعلن إغلاق حسابه على "تيليغرام" بسبب رسائل تهديد أرسلها مسؤولون في الهيئة، يُقال إنها هدّدت بكشف هويات أقاربه وأماكن إقامتهم في مناطق سيطرة نظام الأسد.[99] وكان ذلك سيعرّضهم لخطر الاعتقال أو ما هو أسوأ. وتكشف هذه القضية إلى أي مدى قد تذهب الهيئة في النيل من منتقديها الناشطين. وقد أُضفي على هذه الممارسات طابع رسمي أواخر شباط/فبراير 2022 حين أنشأت الهيئة كياناً إلكترونياً رسمياً باسم "جيش الجهاد الإلكتروني".[100] ولن يكون مستغرباً أن تكون الهيئة قد استخدمت أساليب مماثلة ضد ناشطين من غير الجهاديين.

وفي ضوء ما تقدّم، يتضح أن الجولاني والهيئة، وإن كانا يحاولان النأي بنفسيهما عن ارتباطاتهما السابقة بتنظيمَي القاعدة والدولة الإسلامية، قد تحوّلا من نواحٍ كثيرة إلى نظام محلي يتصرف على غرار الدول السلطوية الأخرى في المنطقة. والسؤال المطروح على صانعي السياسات هو: هل ينبغي لواشنطن أن تغضّ الطرف عن ذلك كما تفعل مع حلفائها في المنطقة؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال، تجدر العودة إلى الأفعال التي ارتكبتها الهيئة والجماعات التي سبقتها. فمن سوء السياسة أن تتجاهل واشنطن أو أي عاصمة أوروبية تجاهلاً تاماً التجاوزات الكبرى التي ارتكبها الجولاني والهيئة. وإذا كانت الهيئة جادة في رغبتها في الانخراط مع الولايات المتحدة والغرب، فلا بد من محاسبتها، ولا بد أن تعوّض من ظلمتهم.

الهوامش

1. أبو محمد الجولاني، "الإعلان عن جبهة النصرة: لشعب سوريا من مجاهدي سوريا في ميادين الجهاد"، مؤسسة المنارة البيضاء للإنتاج الإعلامي، 24 كانون الثاني/يناير 2012، https://bit.ly/3qS7Xuj
2. أبو محمد الجولاني، "جلسة مع الانغماسيين من الأشداء الحمر في غرب حلب"، المكتب الإعلامي لهيئة تحرير الشام، 4 شباط/فبراير 2020، https://bit.ly/3NxBpQ4
3. حسن حسن، "الجهاد السني يتجه نحو المحلية"، مجلة ذا أتلانتيك، 15 شباط/فبراير 2019، https://www.theatlantic.com/ideas/archive/2019/02/sunni-jihad-turns-away-transnational-terrorism/582745
4. "زيارة الأمراء لأبنائهم المجاهدين في عيد الفطر المبارك"، المكتب الإعلامي لهيئة تحرير الشام، 26 أيار/مايو 2020، https://bit.ly/3wPnDlS
5. نسرين الزراعي وكرم الشعار، "اقتصاديات هيئة تحرير الشام"، معهد الشرق الأوسط، 21 حزيران/يونيو 2021، https://www.mei.edu/publications/economics-hayat-tahrir-al-sham
6. منشور على فيسبوك، "المعارضة الإسلامية للنظام السوري"، 24 كانون الثاني/يناير 2012 (الرابط الأصلي غير متاح). محتوى الرسالة متاح على: https://justpaste.it/tartusijnjanuary2012. يحتفظ المؤلف بنسخة في أرشيفه الخاص.
7. الجولاني، "إعلان التشكيل"، https://bit.ly/3iQfbur
8. "سوريا تنتفض ضد وصف أمريكا لجبهة النصرة بالإرهاب"، صوت الوطن، 11 كانون الأول/ديسمبر 2012، https://www.alwatanvoice.com/arabic/news/2012/12/11/342117.html
9. "إدراج الولايات المتحدة لجماعة الإسلاميين المعارضة في قائمة الإرهاب "خاطئ جداً": الإخوان السوريون"، العربية، 11 كانون الأول/ديسمبر 2012، https://english.alarabiya.net/articles/2012/12/11/254534
10. "الجيش السوري الحر يعلن رفضه القرار الأمريكي ضد جبهة النصرة وأهل حلب وإدلب يخرجون في مظاهرات منددة"، صوت الوطن، 11 كانون الأول/ديسمبر 2012، https://www.alwatanvoice.com/arabic/news/2012/12/11/342123.html
11. "بالأسماء: أكثر من 100 موقع للثورة السورية تعلن الجمعة القادمة 'كلنا جبهة النصرة'"، وكالة الأنباء الإسلامية "حق"، 11 كانون الأول/ديسمبر 2012، https://www.dd-sunnah.net/forum/showthread.php?t=157803
12. "لقاء اليوم مع أبو محمد الجولاني: النصرة ومستقبل سوريا"، الجزيرة، 19 كانون الأول/ديسمبر 2013، https://bit.ly/3wSzgsl
13. جبهة النصرة، "مؤتمر صحفي مع الشيخ الفاتح أبو محمد الجولاني"، مؤسسة المنارة البيضاء للإنتاج الإعلامي، 13 كانون الأول/ديسمبر 2015، https://bit.ly/3JXwfL7
14. أنس خطاب، "رسالة بحثية: مصطلح (الثورة) بين هيئة تحرير الشام وقادة المجاهدين"، 19 آب/أغسطس 2017، https://bit.ly/376QPu1

15. هيئة تحرير الشام، "الحوار الثاني: الاقتتال الداخلي ومستقبل الميدان مع الشيخ أبو محمد الجولاني"، مؤسسة أمجد للإنتاج المرئي، 14 كانون الثاني/يناير 2019، https://bit.ly/375jWO3

16. للاطلاع على أرشيف كامل لظهورات الجولاني العلنية، راجع:
https://jihadology.net/2020/05/27/a-timeline-of-abu-muhammad-al-jawlanis-appearances

17. أبو محمد الجولاني، "زيارة مخيم للنازحين للنظر في مطالبهم ولقائهم"، المكتب الإعلامي لهيئة تحرير الشام، 1 آب/أغسطس 2020، https://bit.ly/36Z1nv4؛ وأيضاً: "زيارة سكان مخيم حلفاية للنازحين لمتابعة أوضاعهم وتلبية احتياجاتهم"، المكتب الإعلامي لهيئة تحرير الشام، 6 آب/أغسطس 2020، https://bit.ly/3DuVdPj

18. هيئة تحرير الشام، "لقاء القائد أبو محمد الجولاني بشيوخ القبائل في يوم عيد الفطر المبارك"، المكتب الإعلامي لهيئة تحرير الشام، 15 أيار/مايو 2021، https://bit.ly/3NOiJvN

19. أبو محمد الجولاني، "كلمة في حفل افتتاح طريق حلب – باب الهوى"، مؤسسة أمجد للإنتاج المرئي، 8 كانون الثاني/يناير 2022، https://bit.ly/3wYIEed

20. خالد الخطيب، "تدهور الليرة التركية يُضر بسكان إدلب السورية"، المونيتور، 24 تشرين الثاني/نوفمبر 2021،
https://www.al-monitor.com/originals/2021/11/deteriorating-turkish-lira-hurts-residents-syrias-idlib

21. جيروم دريفون وباتريك هاني، "كيف يتوطّن الجهاد العالمي وإلى أين يؤدي: حالة هيئة تحرير الشام، الامتياز السابق للقاعدة في سوريا"، المعهد الجامعي الأوروبي، فيزولي، إيطاليا، 2021، https://bit.ly/3NzSN6J

22. الزراعي والشعار، "اقتصاديات هيئة تحرير الشام"،
https://www.mei.edu/publications/economics-hayat-tahrir-al-sham

23. إدارة المناطق المحررة، "جلسة طارئة للقيادة المحررة لدعم النازحين في مختلف مناطق الشمال المحرر"، 31 كانون الثاني/يناير 2022؛ والتغريدة المتعلقة بإطلاق حملة "دفؤكم واجبنا"،
https://twitter.com/azelin/status/1488140300329574407

24. وفقاً لجيروم دريفون وباتريك هاني: "يخضع قطاع الصحة في معظمه لإشراف منظمات دولية غير حكومية، فيما تُنظِّم التعليم مؤسسات دينية مستقلة وهيئات مدعومة من الخارج. " راجع: "تعزيز دولة تكنوقراطية (ما بعد جهادية) في إدلب"،
https://pomeps.org/the-consolidation-of-a-post-jihadi-technocratic-state-let-in-idlib

25. أبو محمد الجولاني، "المشاركة في تفقد مخيمات النازحين المتضررة عقب انتهاء الجلسة الطارئة"، مؤسسة أمجد للإنتاج المرئي، 1 شباط/فبراير 2022، https://bit.ly/3uKUeGN

26. وزارة العدل في حكومة الإنقاذ، "افتتاح الجلسة القضائية الجنائية المتخصصة للقضاة الجزائيين ورؤساء النيابة العامة" (بالعربية)، 23 أيلول/سبتمبر 2021، https://syriansg.org/19882؛ و"بيت الصالحين

#3"، وزارة الأوقاف والدعوة والإرشاد في حكومة الإنقاذ، 17 كانون الثاني/يناير 2022،
https://syriansg.org/25385

27. "الجولاني الثاني في حكومة الإنقاذ"، سوريا تي في، 26 نيسان/أبريل 2021، https://bit.ly/3NBQq3g

28. الزراعي والشعار، "اقتصاديات هيئة تحرير الشام"؛ وخالد الخطيب، "جماعة جهادية تسعى للسيطرة على الإعلام والإعلان في شمال غرب سوريا"، المونيتور، 22 تشرين الثاني/نوفمبر 2021،
https://www.al-monitor.com/originals/2021/11/jihadi-group-seeks-command-media-advertising-northwest-syria

29. للتوضيح، "شام بنك" المشار إليه هنا يختلف عن "بنك الشام" المرتبط بنظام الأسد والخاضع للعقوبات الأمريكية.

30. خالد الخطيب، "كيف تُبيّض جماعة جهادية سورية أموالها في إدلب"، المونيتور، 7 آب/أغسطس 2021،
https://www.al-monitor.com/originals/2021/08/how-syrian-jihadi-group-laundering-money-idlib

31. المصدر نفسه.

32. المصدر نفسه.

33. "أفضل الخيارات السيئة لإدلب السورية"، تقرير الشرق الأوسط رقم 197، مجموعة الأزمات الدولية، بروكسل، 2019،
https://www.crisisgroup.org/middle-east-north-africa/eastern-mediterranean/syria/197-best-bad-options-syrias-idlib

34. هيئة تحرير الشام، "مشاركة الجولاني في الجلسة الطارئة"، https://bit.ly/3qTAUGt

35. خالد الخطيب، "احتجاجات تندلع في مدينة سورية تسيطر عليها جماعة جهادية"، المونيتور، 21 تشرين الأول/أكتوبر 2021،
https://www.al-monitor.com/originals/2021/10/protests-break-out-syrian-city-controlled-jihadist-faction

36. المصدر نفسه.

37. جلال سليمان، "حكومة موالية للمعارضة في إدلب ترفع الضرائب على الدراجات النارية"، المونيتور، 29 كانون الأول/ديسمبر 2021،
https://www.al-monitor.com/originals/2021/12/opposition-led-government-syrias-idlib-increases-taxes-motorcycles

38. المصدر نفسه.

39. المصدر نفسه.

40. المصدر نفسه.

41. خالد الخطيب، "أطفال إدلب يصبحون عائلين وسط ارتفاع الفقر"، المونيتور، 28 تشرين الثاني/نوفمبر 2021،
https://www.al-monitor.com/originals/2021/11/idlibs-children-become-breadwinners-amidst-rising-poverty

42. المصدر نفسه.

43. هيئة تحرير الشام، "جيل الفاتحين"، 30 تشرين الثاني/نوفمبر 2020، https://bit.ly/3qSarZQ

44. أبو محمد الجولاني، "تهنئة أبناء الشهداء بمناسبة عيد الفطر"، المكتب الإعلامي لهيئة تحرير الشام، 26 أيار/مايو 2020، https://bit.ly/3qRnSsX

45. المصدر نفسه.

46. أيمن جواد التميمي، "موقف هيئة تحرير الشام من الديمقراطية"، 9 شباط/فبراير 2019، https://www.aymennjawad.org/2019/02/a-hayat-tahrir-al-sham-perspective-on-democracy

47. لمزيد من التفاصيل راجع: هاديا منصور، "النساء مُستثنيات من التمثيل الإداري في شمال سوريا"، عنب بلدي، 1 نيسان/أبريل 2022، https://english.enabbaladi.net/archives/2022/04/women-excluded-from-administrative-representation-in-northern-syria-says-female-activists

48. جبهة فتح الشام، "الشيخ أبو محمد الجولاني في مقابلة حصرية مع الجزيرة"، 17 أيلول/سبتمبر 2016، https://bit.ly/3uG05gN

49. أبو محمد الجولاني، "التهنئة بمناسبة عيد الأضحى المبارك 1439هـ"، المكتب الإعلامي لهيئة تحرير الشام، 21 آب/أغسطس 2018، https://bit.ly/36IeO2I

50. الجولاني، "جلسة مع الانغماسيين"، https://bit.ly/3NxBpQ4

51. أيمن جواد التميمي، "أبو الفتح الفرغلي في هيئة تحرير الشام حول الطوائف الأقلية"، 17 حزيران/يونيو 2021، http://www.aymennjawad.org/2021/06/hayat-tahrir-al-sham-abu-al-fatah-al-farghali-on

52. الزراعي والشعار، "اقتصاديات هيئة تحرير الشام"؛ وخليفة وبونسي، "في إدلب السورية: فرصة واشنطن لإعادة التفكير في مكافحة الإرهاب"، https://www.crisisgroup.org/middle-east-north-africa/eastern-mediterranean/syria/syrias-idlib-washingtons-chance-reimagine-counter-terrorism

53. دافيد غارتنشتاين – روس وأيمن جواد التميمي، "دلالات درزية"، فورين أفيرز، 5 تشرين الأول/أكتوبر 2015، https://www.foreignaffairs.com/articles/syria/2015-10-05/druze-clues؛ وأيمن جواد التميمي، "ملاحظات إضافية حول دروز جبل السمّاق"، 6 تشرين الأول/أكتوبر 2015، https://www.aymennjawad.org/2015/10/additional-notes-on-the-druze-of-jabal-al-summaq

.

54. أيمن جواد التميمي، "الجهاديون التونسيون الذين اغتالهم الأمريكيون في إدلب"، 16 أيلول/سبتمبر 2020، https://www.aymennjawad.org/2020/09/the-tunisian-jihadists-assassinated-by

55. أيمن جواد التميمي، "مقالة ضيف: الجهاديون الإيغور المحتلون للمنازل في قلب لوزة"، 14 آب/أغسطس 2021،

http://www.aymennjawad.org/2021/08/guest-post-the-uyghur-jihadist-scoundrels

56. أيمن جواد التميمي، "الوضع في كفريا: مقابلة"، 24 آذار/مارس 2021،
https://aymennjawad.org/2021/03/the-situation-in-kafariya-interview

57. مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، "الاحتجاز والسجن التعسفيان: تقرير لجنة التحقيق الدولية المستقلة بشأن الجمهورية العربية السورية"، 11 آذار/مارس 2021،
https://www.ohchr.org/EN/HRBodies/HRC/IICISyria/Pages/Detention-report.aspx

58. المصدر نفسه.

59. مارتن سميث، "مقابلة: محمد السلّوم"، فرونت لاين، 11 آذار/مارس 2021،
https://www.pbs.org/wgbh/frontline/interview/mohamed-al-salloum

60. خالد الخطيب، "جماعة جهادية في إدلب السورية تواجه انتقادات بسبب محاكمات غير عادلة وأحكام إعدام"، المونيتور، 25 آب/أغسطس 2021،
https://www.al-monitor.com/originals/2021/08/jihadi-group-syrias-idlib-faces-criticism-over-unfair-trials-death-sentences

61. المصدر نفسه.

62. أبو اليقظان المصري، تحرير أيمن جواد التميمي، "حكم تعذيب المتهم"، 26 أيلول/سبتمبر 2020،
https://aymennjawad.org/2020/09/guest-post-sheikh-abu-al-yaqdhan-al-masri-on-use

63. الخطيب، "جماعة جهادية في إدلب تواجه انتقادات"،
https://www.al-monitor.com/originals/2021/08/jihadi-group-syrias-idlib-faces-criticism-over-unfair-trials-death-sentences

64. خالد الخطيب، "جماعة جهادية سورية تفرض الاعتذار أو السجن رداً على الانتقادات"، المونيتور، 11 تشرين الثاني/نوفمبر 2021؛ و"سكان إدلب السورية يحتجون ضد سياسات هيئة تحرير الشام والاختفاء القسري"، العربي الجديد، 22 كانون الثاني/يناير 2022،
https://english.alaraby.co.uk/news/residents-syrias-idlib-protest-against-hts-repression

.

65. الخطيب، "جماعة جهادية سورية تفرض الاعتذار"،
https://www.al-monitor.com/originals/2021/11/syrian-jihadist-group-mandates-apologies-or-imprisonment-criticism

66. مارتن سميث، "الجهادي: أبو محمد الجولاني"، فرونت لاين، 1 شباط/فبراير و14 شباط/فبراير 2021،
https://www.pbs.org/wgbh/frontline/interview/abu-mohammad-al-jolani

67. "الاحتجاز والسجن التعسفيان: التقرير الأممي بشأن سوريا"،
https://www.ohchr.org/EN/HRBodies/HRC/IICISyria/Pages/Detention-report.aspx

68. المصدر نفسه.

69. المصدر نفسه.

70. المصدر نفسه.

71. المصدر نفسه.

72. علاء نصار، "كأننا في سجون الأسد: ناجيات يروين محنتهن في زنازين هيئة تحرير الشام"، سوريا دايركت، 7 كانون الثاني/يناير 2021،
https://syriadirect.org/like-being-in-assads-prisons-female-survivors-recall-their-ordeals-in-hts-cells-2

73. "الاحتجاز والسجن التعسفيان: التقرير الأممي بشأن سوريا"،
https://www.ohchr.org/EN/HRBodies/HRC/IICISyria/Pages/Detention-report.aspx

74. انظر سلسلة تغريدات مزمجر الشام الكاملة عن منظومة سجون الهيئة:
https://threadreaderapp.com/thread/1477315507334361089.html

75. المصدر نفسه.

76. جميع المقاطع متاحة في أرشيف قناة بلال عبد الكريم على يوتيوب OGN TV:
https://www.youtube.com/c/OGNTV/videos

77. "أم ميمونة: هيئة تحرير الشام اعتقلتني وضربتني"، مقطع مصوّر على يوتيوب، 30:25 دقيقة، نشرته قناة OGN TV، 24 آب/أغسطس 2021، https://www.youtube.com/watch?v=QAp3zrgElEA

78. حسن عرفة، "سواعد الخير تتدخل في العمل الإنساني في إدلب"، المجلس الأطلسي، 9 آذار/مارس 2018،
https://www.atlanticcouncil.org/blogs/syriasource/sawa-id-al-khair-interferes-with-humanitarian-work-in-idlib

79. محمد حردان، "جماعة جهادية سورية في إدلب تُحل هيئة أمنية وتُنشئ شرطة أخلاقية"، المونيتور، 13 أيلول/سبتمبر 2021،
https://www.al-monitor.com/originals/2021/09/syrian-jihadist-group-idlib-replaces-security-squad-moral-police

80. حكومة الإنقاذ، "حراس الفضيلة"، وزارة الأوقاف والدعوة والإرشاد، 1 أيلول/سبتمبر 2021،
https://syriansg.org/18725

81. المصدر نفسه.

82. "الاحتجاز والسجن التعسفيان: التقرير الأممي بشأن سوريا"،
https://www.ohchr.org/EN/HRBodies/HRC/IICISyria/Pages/Detention-report.aspx

83. حردان، "جماعة جهادية في إدلب تُحل هيئة أمنية وتُنشئ شرطة أخلاقية"،
https://www.al-monitor.com/originals/2021/09/syrian-jihadist-group-idlib-replaces-security-squad-moral-police

84. المصدر نفسه.

85. المصدر نفسه.

86. زينب مصري، "'تحرير الشام' تحرس 'الفضيلة' بالتضييق على النساء"، عنب بلدي، 17 تشرين الأول/أكتوبر 2021، https://www.enabbaladi.net/520123/؛ والنسخة الإنجليزية، 24 تشرين الأول/أكتوبر

،2021

https://english.enabbaladi.net/archives/2021/10/hayat-tahrir-al-sham-guards-virtue-by-imposing-restrictions-on-women-in-syrias-idlib

87. المصدر نفسه.

88. جنى العيسى وديانا رحيمة، "فهم ديني أم نزعة ذكورية.. من يحكم النساء في الشمال السوري"، عنب بلدي، 31 تشرين الأول/أكتوبر 2021، https://www.enabbaladi.net/523043/؛ والنسخة الإنجليزية، 7 تشرين الثاني/نوفمبر 2021،

https://english.enabbaladi.net/archives/2021/11/caught-between-rigid-beliefs-and-toxic-masculinity-women-in-northwestern-syria

89. هاديا منصور، "نساء يتجاوزن عقدة 'المحرم' بإدلب"، عنب بلدي، 21 تشرين الثاني/نوفمبر 2021، https://www.enabbaladi.net/526969/؛ والنسخة الإنجليزية، 28 تشرين الثاني/نوفمبر 2021،

https://english.enabbaladi.net/archives/2021/11/women-drivers-in-idlib-defy-society-based-mahram-law

90. المصدر نفسه.

91. مايا جبيلي، "تنظيم القاعدة في سوريا يختطف ناشطين إعلاميين بارزين لفترة وجيزة"، وكالة فرانس برس، 10 كانون الثاني/يناير 2016، متاح على:

https://www.yahoo.com/entertainment/qaeda-abducts-media-activists-syria-rebel-town-105055383.html

92. هيد هيد، "الدعاية غير الرقمية لهيئة تحرير الشام: البنية التحتية والانخراط والاحتكار"، المركز الدولي لدراسة التطرف، لندن، 2019،

https://icsr.info/2019/09/18/htss-offline-propaganda-infrastructure-engagement-and-monopoly

93. مقابلة مع رائد فارس، 7 تشرين الثاني/نوفمبر 2017.

94. علا الرفاعي، "في ذكرى رائد فارس ولافتات كفرنبل"، مجلة السياسة والشؤون الشرق أوسطية، 12 كانون الأول/ديسمبر 2018،

https://jmepp.hkspublications.org/2018/12/12/in-memoriam-raed-fares-and-the-banners-of-kafranbel

95. "لجنة دعم الصحفيين تُعرب عن قلق بالغ من تدهور حريات الإعلام في مناطق سيطرة هيئة تحرير الشام في سوريا مع إغلاق مكتب قناة أورينت"، لجنة دعم الصحفيين، 27 آب/أغسطس 2021،

https://journalistsupport.net/article.php?id=377108

96. وكالة أنباء إباء، "حكومة الإنقاذ تُصدر بطاقات لضبط العمل الصحفي في الشمال المحرر"، 2 تموز/يوليو 2020،

https://web.archive.org/web/20210127002254/https://ebaa.news/news/news-details/2020/07/69336

97. "الصحفيون السوريون في إدلب يواجهون حملة قمع من حكومة مرتبطة بالجهاديين"، المونيتور، 26 تشرين الأول/أكتوبر 2020،

https://www.al-monitor.com/originals/2020/10/syria-idlib-hayat-tahrir-al-sham-permits-journalists-freedom.html

98. كريم فهيم، "الفرع السابق لتنظيم القاعدة في سوريا يبدو أنه يلطّف صورته"، واشنطن بوست، 2 كانون الثاني/يناير 2021،
https://www.washingtonpost.com/world/2022/01/02/syria-idlib-hts-qaeda-militants

99. "ردّ عدوان البغاة"، "إعلان مهم"، 16 تشرين الثاني/نوفمبر 2021، كان متاحاً سابقاً على: https://t.me/atiocxz (الحساب لم يعد نشطاً بسبب التهديدات).

100. خالد الخطيب، "هيئة تحرير الشام تُحارب خصومها على وسائل التواصل الاجتماعي"، المونيتور، 4 آذار/مارس 2022،
https://www.al-monitor.com/originals/2022/03/hayat-tahrir-al-sham-fights-opponents-social-media

5

التركة التاريخية الثقيلة لهيئة تحرير الشام

استعرض الفصل السابق الطرق الكثيرة التي فرضت بها هيئة تحرير الشام والجماعات التي سبقتها إرادتها على الناس، ومنها إجبار الدروز على اعتناق الإسلام السني، ومصادرة ممتلكات المسيحيين، واغتيال أيقونة الثورة السورية رائد فارس. ويرصد هذا الفصل أفعالاً مشينة أخرى ارتكبتها الجماعات التي سبقت الهيئة. وأبرز هذه الأفعال أنها وفّرت لتنظيم الدولة الإسلامية المساحة الأولى التي عمل فيها ونما حتى أصبح ما أصبح عليه، وأنها شنّت حملة عسكرية سعت إلى تطهير أجزاء من ريف اللاذقية عرقياً من العلويين، بمن فيهم المدنيون، وأنها اختطفت صحفيَّين غربيَّين وسجنتهما وعذّبتهما.

كيف مهّدت جبهة النصرة لصعود تنظيم الدولة الإسلامية

من المعروف لدى الخبراء أن جبهة النصرة، سلف هيئة تحرير الشام، أُسست في الأصل فرعاً لـ"دولة العراق الإسلامية"، سلف تنظيم الدولة الإسلامية. وحتى حين رفض الجولاني، قائد الهيئة اليوم، إعلان أبي بكر البغدادي قيام "الدولة الإسلامية في العراق والشام" في نيسان/أبريل 2013، فإنه أثنى على البغدادي لأنه ساعد في توفير الموارد الأساسية عند تأسيس جبهة النصرة، ووصفه بأنه "ذلك الشيخ الكريم الذي أعطى أهل الشام حقهم... ونصرنا... رغم الأيام الصعبة التي كانت تمر بها [دولة العراق الإسلامية]".[1] وفي منتصف كانون الأول/ديسمبر 2013، قبل أن يُطرد تنظيم داعش من كثير من معاقل المعارضة السورية أواخر ذلك الشهر ومطلع كانون الثاني/يناير 2014، أوضح الجولاني في مقابلة مع قناة الجزيرة أن ما

يجري بين جبهة النصرة وداعش "خلاف بين أفراد داخل البيت الواحد".[2] ويكشف ذلك الإطار الذي كان الجولاني لا يزال ينظر من خلاله إلى داعش.



عناصر من تنظيم داعش وجبهة النصرة يجتمعون في عيد الأضحى، تشرين الأول/أكتوبر 2013.

وكانت جبهة النصرة قد حاولت في البداية البقاء بعيداً عن الاقتتال بين الفصائل وداعش، لكن الخلافات أصبحت عصيّة على الحل بعد أن أصدر تنظيم القاعدة في 2 شباط/فبراير 2014 بياناً تبرّأ فيه من داعش، ثم بعد اغتيال أبي خالد السوري في 23 من الشهر نفسه، وهو صلة الوصل الرئيسية لتنظيم القاعدة وقيادي بارز في حركة أحرار الشام.[3] وقد بدا الجولاني يتهم داعش بالنفاق في هذه الحادثة، إذ شبّه قتلة أبي خالد بـ"الصحوات" في العراق التي انقلبت على القاعدة لمصلحة الولايات المتحدة، فقال: "الصحوات في العراق هم الذين تركوا قتال أمريكا والرافضة [تعبير تحقيري للشيعة]، واستبدلوا به قتال المجاهدين مع العدو. وفي الشام، من الذي ترك قتال النصيرية وانشغل بقتال من يقاتل النصيرية؟".[4] كذلك أصدرت جبهة النصرة بعد يومين من اغتيال أبي خالد رسالة توضّح منهجها في مقابل منهج داعش.[5]

غير أن ذلك جاء متأخراً، إذ كان داعش قد نجح في بناء نفسه داخل سوريا خلال الأشهر العشرة السابقة تقريباً. فالمساحة التي أتاحتها جبهة النصرة لداعش لم توفّر له مقاتلين جدداً وأسلحة واستقراراً مالياً أكبر فحسب، بل أسهمت أيضاً في إضعاف قتال الفصائل غير الجهادية ضد نظام الأسد. فقد سقط جزء كبير من الأراضي التي كانت تسيطر عليها هذه الفصائل في يد داعش، ثم في يد خَلَفه "الدولة الإسلامية"، خلال الأشهر والسنة التالية.

وكذلك فإن جزءاً كبيراً من حملة داعش وخلافه الأول مع جبهة النصرة دار حول رفض الجولاني والجبهة تنفيذ أوامر البغدادي باغتيال ناشطين سوريين وقادة فصائل بارزين، لأن داعش كان يعدّهم جميعاً مرتدين.[6] ومنذ تلك اللحظة، تمكّن داعش من استخدام موارده الجديدة للسيطرة على أراضٍ في العراق، وهو ما ساعده بدوره على تعزيز سيطرته في شرق سوريا.

ومن نواحٍ كثيرة، أسهم دخول جبهة النصرة الأول إلى ساحة الصراع السوري، الذي أفسح بدوره المجال أمام دخول داعش، في حسم مصير المعارضة والثورة السوريتين، وقضى على أي فرصة ربما كانت لديهما لإسقاط نظام الأسد. وليس مستبعداً أن المعارضة والثورة كانتا ستُخفقان في النهاية على أي حال بسبب وحشية النظام المفرطة، لكن دخول الجهاديين ومعهم المقاتلون الأجانب قلّص فرص أي مساعدة خارجية كان يمكن أن تسهّل سقوط النظام، خشية أن تقع البلاد في يد جبهة النصرة أو داعش.

الحملة على العلويين

ابتداءً من 4 آب/أغسطس 2013، أول أيام عيد الفطر الذي يُختتم به شهر رمضان، شنّت جبهة النصرة وداعش وفصائل سلفية مسلحة أخرى حملة على مناطق العلويين في ريف اللاذقية، استمرت حتى 18 آب/أغسطس 2013. وفي اليوم الأول، بحسب منظمة هيومن رايتس ووتش، قُتل 190 مدنياً حين سيطرت هذه الجماعات على عشر قرى. وأكدت المنظمة أن "معظم هؤلاء قُتلوا عمداً أو بصورة عشوائية"، وأن "الجرائم كانت مدبّرة ومنظّمة".[7] ولذلك خلصت إلى أن "عمليات القتل واحتجاز الرهائن وغيرها من الانتهاكات المرتكبة... ترقى إلى مستوى الجرائم ضد الإنسانية".[8] وبينما سمّت جبهة النصرة وجماعات أخرى هذه الحملة "معركة تحرير الساحل في ريف اللاذقية"، أطلق عليها داعش اسم "عمليات تطهير الساحل".[9]



إحدى الهجمات الصاروخية الكثيرة على تجمعات سكانية علوية في محافظة اللاذقية. جرى هذا الإطلاق في آب/أغسطس 2013.

وكانت الانتهاكات التي وثّقتها هيومن رايتس ووتش في اليوم الأول من الحملة مؤشراً عاماً على الهجمات التي ستشنّها جبهة النصرة على المدنيين العلويين عسكرياً وفكرياً. ففي زمن جبهة النصرة، دأب الجولاني على تسمية العلويين "النصيرية"، وهو وصف بالغ الإهانة يعادل في أمريكا وصف شخص أسود بأقذع الألفاظ العنصرية. ولم يكن يميّز في تصريحاته بين المدنيين والنظام، ويعود ذلك جزئياً إلى أن كثيراً من المستويات العليا في النظام ومراكز القرار فيه كانت من الطائفة العلوية. وقال: "بالتأكيد، بشار الأسد لا يقتل وحده، بل يقتل بهم [أي النصيرية]".[10]

غير أن قتل النساء والأطفال واستهداف القرى المدنية عشوائياً يبقيان جريمة فادحة، حتى وإن كانت جرائم نظام الأسد أسوأ بكثير وعلى نطاق واسع ومنظّم. فذلك لا يبرّر ما قامت به جبهة النصرة، مثل حملة "العين بالعين" التي أعقبت الهجوم الكيميائي المروّع الذي شنّه نظام الأسد على المدنيين في الغوطة بريف دمشق. فقد قال الجولاني عند إعلان الحملة: "إن الثأر لدماء أبنائكم دَين في أعناقنا وفي عنق كل مجاهد، ولن نبرأ منه حتى نذيقهم ما أذاقوا أبناءنا، فقد أُبيح لنا أن نعاقب بمثل ما عوقبنا به".[11]

ومع أن غضب الجولاني مشروع، فإن الرد بالمثل عبر ارتكاب جرائم حرب، حتى وإن لم تبلغ مستوى وحشية نظام الأسد، يكشف إفلاس رؤيته ورؤية جماعته. واستمرت هذه

الحملة تحديداً حتى 14 أيلول/سبتمبر 2013.[12] وبينما استهدفت بعض هجماتها مواقع عسكرية، فإنها شملت أيضاً اغتيال رجل دين علوي والقصف العشوائي لقرية بهلولية العلوية، كما تُظهر الصورة السابقة.[13] والأمثلة التي تناولها هذا القسم على المستويين الفكري والعسكري ليست سوى رأس جبل الجليد مما ارتُكب بحق المدنيين العلويين.[14]

سجن الصحفيين الغربيين وتعذيبهم

لم يعرف معظم الناس بعودة تنظيم داعش إلى الواجهة إلا من خلال حملة قطع الرؤوس التي شنّها على صحفيين وعاملين إنسانيين غربيين ويابانيين في خريف عام 2014. لكن داعش لم يكن الجماعة الوحيدة التي اختطفت أجانب. فجبهة النصرة، وإن لم ترتكب قط أفعالاً سادية استعراضية كأفعال داعش، اختطفت أفراداً هي الأخرى، بينهم صحفيون غربيون. ومن الأمثلة على ذلك قضيتا الصحفيين الأمريكيين ثيو بادنوس وماثيو شراير، مع أن الجولاني تظاهر بعدم المعرفة في مقابلته مع مارتن سميث، إذ قال: "لم يكن لدينا أسرى أمريكيون أصلاً، لا في زمن النصرة ولا حتى الآن. هذه أول مرة أسمع بهذا".[15] لكن بادنوس، الذي بقي في الأسر مدة أطول من شراير لأن الأخير تمكّن من الفرار، كان محتجزاً لدى أحد أبرز مساعدي الجولاني، أبي ماريا القحطاني[16]، وهذا يبيّن ضرورة الحذر عند تحليل مقابلة الجولاني مع برنامج "فرونت لاين".

وأُفرج عن بادنوس في النهاية بعد فدية يُقال إن الحكومة القطرية دفعتها. وبعد عودتهما إلى الولايات المتحدة، كتب الصحفيان مذكرات عن تجربتهما في أسر جبهة النصرة، تناولا فيها بالتفصيل ما تعرّضا له من تعذيب. وكانت الأساليب المستخدمة ضدهما مشابهة لتلك التي سبق وصفها، والتي ما زالت الهيئة تستخدمها ضد الناشطين والأسرى من الجهاديين المعادين لها. ويقول بادنوس إن للتعذيب رائحة خاصة، وإن المحتجزين كانوا يعرفون متى يقترب: "حين يكون هناك تعذيب، تفوح منهم رائحة زيت الباتشولي الذي يضعه الرجال المتّشحون بالسواد على لحاهم. وكلما شممت هذا الزيت، عرفت أن أولئك الرجال في طريقهم إلى عنبر الزنازين".[17] وقبيل فرار شراير، قال ساخراً: "بعد ساعة ونصف سنكون [هو وبادنوس الذي لم يتمكن من الفرار] إما أحراراً، أو أمواتاً، أو نتمنى أن يقتلونا لينتهي التعذيب".[18] ويكشف هذا مستوى التعذيب الذي كان شراير يعرف أن جبهة النصرة قادرة عليه، استناداً إلى تجربتهما في الأسر. وخلافاً لضحايا داعش، نجا بادنوس وشراير، لكن قضيتيهما تكشفان جرائم ارتكبتها جبهة النصرة مباشرة بحق مواطنين أمريكيين.

ومع أن هذا الفصل لا يقدّم عرضاً شاملاً للجرائم التي ارتكبتها جبهة النصرة، فإن من المفيد تذكّر بعض أشهر الحالات عند التفكير في أي سياسة مستقبلية تجاه الجماعة في صورتها الحالية. فالإخفاق في انتزاع اعتراف بالذنب أو تحقيق العدالة للضحايا قبل أي تغيير محتمل في السياسة سيمنح القيادة الحالية للهيئة صكّ براءة لا تستحقه.

الهوامش

1. أبو محمد الجولاني، "حول ميادين الشام"، مؤسسة المنارة البيضاء للإنتاج الإعلامي، 10 نيسان/أبريل 2013، https://bit.ly/3IRSMrf

2. "لقاء اليوم مع أبو محمد الجولاني: النصرة ومستقبل سوريا"، الجزيرة، 19 كانون الأول/ديسمبر 2013، https://bit.ly/3wSzgsl

3. القاعدة، "في علاقة القاعدة بالدولة الإسلامية في العراق والشام"، مؤسسة السحاب للإنتاج الإعلامي، 2 شباط/فبراير 2014، https://bit.ly/3JRapc5؛ و"مقتل قائد فصيل سوري معارض أبو خالد السوري في حلب"، بي بي سي، 24 شباط/فبراير 2014، https://www.bbc.com/news/world-middle-east-26318646

4. أبو محمد الجولاني، "وددت لو كنت ترثيني"، مؤسسة المنارة البيضاء للإنتاج الإعلامي، 24 شباط/فبراير 2014، https://bit.ly/3JSNayi

5. جبهة النصرة، "كلمة في المنهج: فيما نعتقد وما نَدِين لله به"، مؤسسة المنارة البيضاء للإنتاج الإعلامي، 25 شباط/فبراير 2014، https://bit.ly/35sJCE5

6. "أسرار دولة البغدادي #داعش"، ويكي بغدادي، 14 كانون الأول/ديسمبر 2013 – 13 حزيران/يونيو 2014، مؤرشف على:
https://docs.google.com/document/d/1wEQ0FKosa1LcUB3tofeub1UxaT5A-suROyDExgV9nUY
؛ ونُشر أصلاً على تويتر: https://twitter.com/wikibaghdady

7. "لا يزال بإمكانكم رؤية دمائهم: الإعدامات وعمليات القتل العشوائي وأخذ الرهائن من قِبل قوات المعارضة في ريف اللاذقية"، هيومن رايتس ووتش، 10 تشرين الأول/أكتوبر 2013، https://www.hrw.org/report/2013/10/10/you-can-still-see-their-blood/executions-indiscriminate-shootings-and-hostage

8. المصدر نفسه.

9. جبهة النصرة، "انطلاق معركة تحرير الساحل في ريف اللاذقية"، مؤسسة المنارة البيضاء للإنتاج الإعلامي، 9 آب/أغسطس 2013، https://bit.ly/3NDcDOv؛ والدولة الإسلامية في العراق والشام، "حول عمليات تطهير الساحل في ولاية اللاذقية"، مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي، 11 آب/أغسطس 2013، https://jihadology.net/2013/08/11/new-statement-from-the-islamic-state-of-iraq-and-al-sham-on-the-operations-cleansing-of-the-coast-in-the-state-of-al-ladhakiyyah-latakiya

10. "مقابلة مع أبو محمد الجولاني، الجزء الأول"، الجزيرة، 27 أيار/مايو 2015، https://bit.ly/3K1ult0

11. أبو محمد الجولاني، "العين بالعين"، مؤسسة المنارة البيضاء للإنتاج الإعلامي، 25 آب/أغسطس 2013، https://bit.ly/3wQnyOP

12. "ثلاثة بيانات جديدة من جبهة النصرة"، مؤسسة المنارة البيضاء للإنتاج الإعلامي، 14 أيلول/سبتمبر 2013، https://bit.ly/3qOrpIj

13. "أربعة بيانات جديدة من جبهة النصرة"، مؤسسة المنارة البيضاء للإنتاج الإعلامي، 26 آب/أغسطس 2013، https://bit.ly/3DHjCBH؛ و"أربعة بيانات جديدة من جبهة النصرة"، مؤسسة المنارة البيضاء للإنتاج الإعلامي، 28 آب/أغسطس 2013، https://bit.ly/3wQoliL

14. ومن الأمثلة الأخرى مجزرة اشتبرق: أيمن جواد التميمي، "مجزرة اشتبرق في إدلب: مقابلة"، 1 أيار/مايو 2020،
https://aymennjawad.org/2020/05/the-ishtabraq-massacre-in-idlib-interview

15. مارتن سميث، "الجهادي: أبو محمد الجولاني"، فرونت لاين، 1 شباط/فبراير و14 شباط/فبراير 2021، https://www.pbs.org/wgbh/frontline/interview/abu-mohammad-al-jolani

16. ثيو بادنوس، "معصوب العينين: مذكرات الأسر والتعذيب والتنوير" (نيويورك: دار سكريبنر، 2021).

17. المصدر نفسه، ص .xi

18. ماثيو شراير، "صلاة الفجر (أو كيف تنجو من سجن إرهابي سري في سوريا)" (دالاس: بنبيلا بوكس، 2018)، ص 256.

6

العمليات الخارجية والتوجيه والاستلهام

كما أشار الممثل الأمريكي الخاص لشؤون سوريا جيمس جيفري، سعت هيئة تحرير الشام إلى إبلاغ واشنطن: "نريد أن نكون أصدقاءكم. لسنا إرهابيين، نحن نقاتل الأسد فحسب... ولا نشكّل تهديداً لكم".[1] وقد يبدو هذا الخطاب يائساً أو غريباً، لكنه ينسجم جزئياً مع السياسات التي انتهجها الجولاني حين كان يقود جبهة النصرة. ففي مقابلة مع قناة الجزيرة في 27 أيار/مايو 2015، قال الجولاني: "نحن هنا لإنجاز مهمة واحدة فقط: قتال النظام وأعوانه على الأرض، ومنهم حزب الله وغيره. وليس لدى جبهة النصرة أي خطط أو توجيهات لاستهداف الغرب. وقد تلقّينا أوامر واضحة [من أيمن الظواهري] بعدم استخدام سوريا منطلقاً لمهاجمة الولايات المتحدة أو أوروبا، كي لا نُفسد المهمة الحقيقية ضد النظام. ربما تفعل القاعدة ذلك [في أماكن أخرى]، لكن ليس هنا في سوريا".[2]

وقد يعترض بعضهم بأن ما سُمّي "مجموعة خراسان"، التي كانت منغرسة في جبهة النصرة بين عامَي 2013 و2016، كانت مهتمة بالتخطيط لعمليات خارجية. وفي هذا التقييم شيء من الصحة، لكن العلاقة بين القيادة التاريخية لجبهة النصرة والمنخرطين في مجموعة خراسان ينبغي التمييز فيها بين الطرفين وقراءتها في ضوء معلومات أحدث تكشف الفوارق والخلافات بين الطرفين. فهذه الفجوات، وإن بدت هامشية من الخارج، كانت في الحقيقة نذيراً بما سيأتي. ومن نواحٍ كثيرة، كانت مجموعة خراسان نسخة أولية من تنظيم "حراس الدين".[3]

وبعد الانفصال بين جبهة النصرة وتنظيم الدولة الإسلامية في نيسان/أبريل 2013، أصبحت جبهة النصرة رسمياً فرعاً لتنظيم القاعدة، ولم تعد مجرد جماعة تابعة لتنظيم

الدولة. لكن بحسب "مزمجر الشام"، "كان الجولاني مجهولاً تماماً [لدى كبار قادة القاعدة]، وجاءت بيعته للقاعدة فجأة ومن دون تنسيق كامل".[4] وكان ذلك على خلاف سلسلة من القادة التاريخيين في تنظيم القاعدة الذين كان الظواهري يعرفهم، وأرسلهم إلى سوريا من أفغانستان وباكستان وإيران خلال السنوات التالية، لتعزيز الدعم في ظل حرب تنظيم الدولة الإسلامية على القاعدة وفروعها. وقد عُرفت هذه المجموعة في الأوساط العامة باسم "مجموعة خراسان" نسبةً إلى المنطقة التي جاءت منها. وأثار وصول هؤلاء القادة توترات داخل قيادة جبهة النصرة ابتداءً من عامَي 2013 و2014، إذ ضغطت القاعدة على الجبهة لاستيعاب قادة منهم في مجلس شوراها. كما تولّت شخصيات مثل سامي العريدي، وسمير حجازي (أبو همام السوري)، ورضوان نموس (أبو فراس السوري) مناصب قيادية رفيعة في الجبهة.[5]

ويُقال أيضاً إن الجولاني كان منزعجاً من المواقف العقدية الأكثر تشدداً لدى هذه الشخصيات. ويُقال إن الاحتكاكات المرتبطة بذلك أدت إلى مؤامرة انقلابية محتملة دبّرها القيادي في القاعدة عبد المحسن عبد الله إبراهيم الشارخ (سنافي النصر) ضد الجولاني أواخر عام 2014.[6] وإن كانت تلك المؤامرة، إن وُجدت أصلاً، قد فشلت، فإن صالح الحموي، أحد القادة المؤسسين لجبهة النصرة، يقول إن الظواهري حاول عزل الجولاني أواخر عام 2015 بتعيين عبد الله محمد رجب عبد الرحمن (أبو الخير المصري) قائداً لجبهة النصرة. وكان عبد الرحمن قد وصل حديثاً إلى سوريا قادماً من إيران بعد صفقة تبادل أسرى بين تنظيم القاعدة في جزيرة العرب وإيران.[7] غير أن هذه الخطوة جاءت بنتائج عكسية، وقد تكون بنظرة إلى الوراء أحد الأسباب التي دفعت الجولاني وجبهة النصرة إلى فكّ الارتباط بالقاعدة بعد نحو نصف عام.

وتشير هذه الديناميات الداخلية، وكذلك امتناع حملة الطائرات المسيّرة الأمريكية عن استهداف القيادة الأصلية لجبهة النصرة، إلى أن الجبهة لم تكن على الأرجح تخطط لهجمات دولية، خلافاً لشخصيات مجموعة خراسان. ولذلك كان الوضع خلال الفترة الممتدة من 2014 إلى 2016 أكثر تعقيداً بكثير مما بدا من الخارج. ومع ذلك، فإن سهولة الوصول إلى دعاية الجولاني وجبهة النصرة، أو إلى المحتوى الأحدث للهيئة، تعني أن من الممكن أن تُلهم الجماعة شخصاً في الغرب بالتخطيط لهجوم في بلده. فعند النظر إلى مرحلة ما قبل الهيئة مثلاً، تبرز مناسبات عدة وصف فيها الجولاني أمريكا بأنها عدو يتآمر على جبهة النصرة ويشنّ حرباً على من يُسمَّون المجاهدين، وانتقد فيها الفصائل السورية التي تلقّت مساعدات من واشنطن.[8] ومن القضايا الإشكالية الأحدث من المنظور الأمريكي: دعم الجولاني الكلامي

لحركة طالبان ونظرته إليها نموذجاً، وإن كان السياقان السوري والأفغاني مختلفين[9]، وتأييده لإرهاب حماس في حربها المستمرة مع إسرائيل، وتنديده بحالات مزعومة من الإساءة إلى النبي محمد داخل مناطق الهيئة، إضافة إلى الخطاب الحالي لقادة الهيئة الذي قد يُلهم هجمات في الغرب حتى وإن لم تدعُ إليها الجماعة مباشرة.[10]

إسرائيل وحماس

يتناول هذا القسم الطرق التي تقدّم بها هيئة تحرير الشام الصراع الإسرائيلي الفلسطيني لجمهورها المحلي، والكيفية التي قد يُفهم بها هذا الخطاب لدى من يتابعون إعلام الهيئة على الإنترنت في الغرب، وهم يعلمون أن الدول الغربية حليفة لإسرائيل. ولا يهدف هذا القسم إلى الخوض في التاريخ العميق والمعقّد بين إسرائيل والفلسطينيين، أو حركة حماس تحديداً.

ففي الحرب الأخيرة بين حماس وإسرائيل في أيار/مايو 2021، أصدرت الهيئة بياناً يوضح رؤيتها للقضية الفلسطينية من منظور مسلمي "بلاد الشام" التاريخية والأمة الإسلامية جمعاء. وهذا ينقض فكرة أن الهيئة جماعة قومية سورية فحسب[11]، فهي ترى نفسها جزءاً من حلٍّ يتصل بهذه القضية. وقد قال الجولاني إن "ما حدث في الأيام الثلاثة الماضية أحيا الروح الإسلامية في أرجاء العالم الإسلامي على نحو واضح وكبير".[12] وعلى المنوال نفسه، نشر أبو ماريا القحطاني، أحد كبار منظّري الهيئة، على "تويتر" مقطعاً مصوّراً لصواريخ أطلقتها حماس من غزة على مناطق مدنية في إسرائيل، وأرفقه بتعليق جاء فيه: "هذه المشاهد تُفرح المؤمنين وتُحزن المنافقين... اليوم أسود غزة يحوّلون ليل الصهاينة نهاراً. بارك الله في أسود القسام وهم يدكّونهم".[13] وعزّز هذا التوجهَ "مركز منارة الهدى الدعوي" التابع للهيئة، الذي أقام معرضاً بعنوان "الأقصى قضيتنا" في إدلب وجسر الشغور وأطمة والدانا في حزيران/يونيو 2021.[14] وقد حضر المعرض طلاب ووجهاء عشائر وأعضاء في حكومة الإنقاذ المدعومة من الهيئة، إلى جانب سكان محليين آخرين.



عضو في "مركز منارة الهدى الدعوي" التابع لهيئة تحرير الشام يشرح تاريخ "بلاد الشام" في جسر الشغور.

يُضاف إلى ذلك أن منظّر الهيئة أبا ماريا القحطاني، والمؤثر الإلكتروني الموالي للهيئة عبد الرحمن الإدريسي، روّجا لهجمات إرهابية تدعمها حماس ضد مدنيين، مثل الهجوم الذي وقع في القدس في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 2021 وأسفر عن مقتل شخص وإصابة ثلاثة آخرين. وقال القحطاني تعليقاً على الهجوم: "الشعب الفلسطيني يعلّم الأمة التضحية والفداء. ففي وقت يتسابق فيه المهزومون إلى الكفر ويتسارعون إلى الرذيلة والذل، نرى رجالاً يبيعون أنفسهم لله ويتسابقون إلى الجنة. ومن هنا أحيّي أهلنا في فلسطين عامة والقدس خاصة".[15] وعلى المنوال نفسه، كتب الإدريسي: "الأمة يقظة لم تنم، دمها يجري وقلبها ينبض! منفّذ #عملية_القدس (رحمه الله) خلال هجومه الانغماسي على مجموعة من المحتلين الصهاينة".[16]

ومع أن هذا الكلام لا يحرّض على هجوم بشكل مباشر، فإنه يخلق مناخاً قد يدفع أحد أنصار الهيئة في الغرب إلى التصرف بمبادرة منه، وربما مهاجمة كنيس أو شخص يهودي ظاهر الهوية بدافع من معاداته للسامية، حتى وإن لم يكن لهذه الأهداف أي صلة بإسرائيل تحديداً، كما حدث في حالات أخرى في الغرب.[17] وعتبة ارتكاب مثل هذا الفعل ليست عالية مقارنة بأشكال العنف الأخرى، لأن غير الجهاديين أيضاً يهاجمون اليهود، وتتصاعد هذه الهجمات كلما اندلعت مواجهة بين إسرائيل وأعدائها.[18]

الإساءة إلى النبي

وفي السياق نفسه، تُعدّ مسألة الإساءة إلى النبي محمد مسألة حساسة دفعت دولاً وأفراداً إلى اعتبار ما يرونه إهانة مسوّغاً للدعوة إلى العنف. وقد شارك جهاديون في هجمات على من عدّوهم مسيئين، وأبرز هذه الحالات ما ارتبط بالرسوم الدنماركية وبمجلة "شارلي إيبدو" الفرنسية الساخرة.[19] وفي ما يتصل بالأخيرة، قُطع رأس المدرّس الفرنسي صامويل باتي في بلدة كونفلان سانت أونورين الفرنسية في 16 تشرين الأول/أكتوبر 2020. وكان قد عرض عدد "شارلي إيبدو" الذي تضمّن الرسوم في حصة للتربية الأخلاقية والمدنية عن حرية التعبير، بعد أن سمح لأي طالب مسلم بمغادرة الصف قبل عرضها إن أراد.[20] ويُقال إن آخر من تواصل معه منفّذ الهجوم، عبد الله أنزوروف، وهو مهاجر شيشاني في الثامنة عشرة من عمره، كان فاروق الشامي، وهو عضو طاجيكي في الهيئة يقيم في إدلب. ويعتقد المحققون الفرنسيون أنه ربما دفع أنزوروف إلى تنفيذ الهجوم.[21]

ومن غير المرجح أن تكون للهيئة بوصفها تنظيماً أي صلة بالهجوم، لكن الحادثة تبيّن أن أفراداً يعيشون في مناطقها قد يتواصلون بمبادرة منهم مع أشخاص في الخارج ويحرّضونهم على التحرك. ولهذا فإن وجود جماعات أصغر أخرى مصنّفة منظمات إرهابية أجنبية، أو وجود مقاتلين أجانب عموماً، في مناطق الهيئة يُرجَّح أن يكون مشكلة من المنظور الأمريكي، وعائقاً أمام استعداد واشنطن للنظر في شطب الجماعة من قائمة المنظمات الإرهابية الأجنبية. ولا يساعد على ذلك أن حكومة الإنقاذ، الذراع المدنية الحاكمة للهيئة، أصدرت بعد الهجوم بياناً بشأن فرنسا والرئيس إيمانويل ماكرون "تدعو فيه الجميع إلى تحمّل مسؤولياتهم في الدفاع عن النبي محمد"، وهو تهديد ضمني في سياق رؤية الهيئة للعالم.[22]

وبعيداً عن إسرائيل والإساءة إلى النبي، أشاد أبو الفتح الفرغلي، أحد كبار منظّري الهيئة، في آب/أغسطس 2021 بهجوم نفّذه تنظيم حراس الدين المنافس ضد نظام الأسد في دمشق، ووصفه بأنه "عملية مباركة".[23] وأضاف: "جزى الله خيراً من نفّذها".[24] ومع أن المؤلف لا يكنّ أي تعاطف لنظام الأسد، فإن كل ما سبق يبيّن أن مسألة الهيئة والإرهاب ليست مسألة أبيض وأسود، حتى وإن حاولت الجماعة تصويرها كذلك. فإحدى المنصات الإعلامية الرديفة للهيئة، "شموخ"، ما زالت تنشر تسجيلات صوتية قديمة لقادة القاعدة أسامة بن لادن وأبي يحيى الليبي، إضافة إلى عبد الله عزام[25]، وهذا يبيّن أن المنتمين إلى شبكة الهيئة، وإن

كانوا ربما انفصلوا عن القاعدة بصيغتها الحالية، ما زالوا متمسكين بذلك الإرث التاريخي للحركة الجهادية الأوسع.

الهوامش

1. مارتن سميث، "مقابلة: جيمس جيفري"، فرونت لاين، 8 آذار/مارس 2021، https://www.pbs.org/wgbh/frontline/interview/james-jeffrey
2. "مقابلة مع أبي محمد الجولاني على قناة الجزيرة، الجزء الأول"، 27 أيار/مايو 2015، https://bit.ly/3K1ult0
3. هارون ي. زيلين، "حراس الدين: جماعة القاعدة المغفول عنها في سوريا"، المرصد السياسي 3188، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، 24 أيلول/سبتمبر 2019، https://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/huras-al-din-overlooked-al-qaeda-group-syria
4. دانييلي غاروفالو وريكاردو فاليه، "الجهاد السوري والقاعدة والسلفية الجهادية: مقابلة مع مزمجر الشام"، جهاديكا، 23 أيلول/سبتمبر 2021، http://www.jihadica.com/the-syrian-jihad-al-qaida-and-salafi-jihadism
5. تشارلز ليستر، "بعد عشرين عاماً على الحادي عشر من أيلول/سبتمبر: الصراع على السيطرة في شمال غرب سوريا وتداعياته على الجهاد العالمي"، نشرة "سي تي سي سنتينل" (CTC Sentinel)، المجلد 14، العدد 7، أيلول/سبتمبر 2021، https://ctc.usma.edu/twenty-years-after-9-11-the-fight-for-supremacy-in-northwest-syria-and-the-implications-for-global-jihad
6. المصدر نفسه.
7. صالح الحموي، "الخلافات الفكرية ومستقبل طالبان والقاعدة وداعش وهيئة تحرير الشام"، جهادولوجي، 27 تشرين الأول/أكتوبر 2021، https://jihadology.net/2021/10/27/guest-post-intellectual-differences-between-the-taliban-al-qaeda-isis-and-the-hayat-tahrir-al-sham
8. أبو محمد الجولاني، "يا أهل الشام نفدي فيكم أرواحنا"، مؤسسة المنارة البيضاء، 27 كانون الأول/ديسمبر 2012، https://bit.ly/36LpptB؛ أبو محمد الجولاني، "النصر من عند الله والفتح قريب"، مؤسسة المنارة البيضاء، 1 نيسان/أبريل 2015، https://bit.ly/3tXcT3h؛ "مقابلة مع أبي محمد الجولاني، الجزء الثاني"، قناة الجزيرة، 3 حزيران/يونيو 2015، https://bit.ly/3qR6AMu؛ جبهة النصرة، "مؤتمر صحفي مع الشيخ الفاتح أبو محمد الجولاني"، مؤسسة المنارة البيضاء، 13 كانون الأول/ديسمبر 2015، https://bit.ly/3JXwfL7.
9. هيئة تحرير الشام، "تهنئة لحركة طالبان والشعب الأفغاني"، 18 آب/أغسطس 2021، https://bit.ly/36DJVww
10. هارون ي. زيلين، "من الجهاد العالمي إلى النظام المحلي: هيئة تحرير الشام تبني أشكالاً مختلفة من الشرعية"، المرصد السياسي 3519، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، 6 آب/أغسطس 2021، https://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/global-jihad-local-regime-hts-builds-different-forms-legitimacy

11. هيئة تحرير الشام، "فلسطين قضيتنا وقضية كل مسلم"، 11 أيار/مايو 2021، https://bit.ly/3qWK30Z

12. هيئة تحرير الشام، "لقاء القائد أبي محمد الجولاني بمشايخ القبائل في عيد الفطر المبارك"، المكتب الإعلامي لهيئة تحرير الشام، 15 أيار/مايو 2021، https://bit.ly/3NOiJvN

13. تغريدة أبو ماريا القحطاني: https://twitter.com/BnMaysara/status/1392277657048526850

14. هيئة تحرير الشام، "نسخة إلكترونية من بروشور 'فلسطين قضيتنا الأولى' لمن لم يحظَ بنسخة في معرض الأقصى قضيتنا"، مركز منارة الهدى الدعوي، 18 حزيران/يونيو 2021. نسخة محفوظة في أرشيف المؤلف.

15. تغريدة أبو ماريا القحطاني، 21 تشرين الثاني/نوفمبر 2021، https://twitter.com/BnMaysara/status/1462375526266552327

16. تغريدة عبد الرحمن الإدريسي، 21 تشرين الثاني/نوفمبر 2021، https://twitter.com/Edrissitn/status/1462371550766714881

17. ميتشل سيلبر، "الهجمات الإرهابية على أهداف يهودية في الغرب (2012 – 2019): الفجوة الأطلسية بين المهاجمين الأوروبيين والأمريكيين"، نشرة "سي تي سي سنتينل" (CTC Sentinel)، المجلد 12، العدد 5، أيار/مايو – حزيران/يونيو 2019، https://ctc.usma.edu/terrorist-attacks-jewish-targets-west-2012-2019-atlantic-divide-european-american-attackers

18. رابطة مناهضة التشهير، "في أعقاب اشتعال العنف في الشرق الأوسط، تضاعفت الحوادث المعادية للسامية في أيار/مايو 2021 مقارنةً بأيار/مايو 2020"، 7 حزيران/يونيو 2021، https://www.adl.org/blog/following-start-of-mideast-violence-antisemitic-incidents-more-than-double-in-may-2021-vs-may

19. يتي كلاوسن، "الرسوم الكاريكاتيرية التي هزّت العالم" (نيو هيفن: مطبعة جامعة ييل، 2009)؛ ويتي كلاوسن، "الجهادية الغربية: تاريخ ثلاثين عاماً" (أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 2020).

20. كيم ويلشر، "المعلم المقطوع الرأس في باريس هو صامويل باتي (47 عاماً)"، الغارديان، 17 تشرين الأول/أكتوبر 2020، https://www.theguardian.com/world/2020/oct/17/teacher-decapitated-in-paris-named-as-samuel-paty-47

21. جان – ميشيل ديكوجي وجيريمي فام – لي، "'قطعتُ رأس الأستاذ': تحديد آخر من تواصل معه قاتل صامويل باتي في سوريا"، لوباريزيان، 8 آذار/مارس 2021، https://www.leparisien.fr/faits-divers/j-ai-decapite-le-prof-le-dernier-contact-du-tueur-de-samuel-paty-identifie-en-syrie-08-03-2021-8427609.php

22. مكتب رئيس وزراء حكومة الإنقاذ السورية، "بيان إدانة" (بالعربية)، 25 تشرين الأول/أكتوبر 2020، https://syriansg.org/9075

23. حراس الدين، "الغزوة الثانية للشدة"، 4 آب/أغسطس 2021، https://bit.ly/389Y7NW

24. تغريدة أبو الفتح الفرغلي: https://twitter.com/yelfarghaly/status/1422937291673190404

25. راجع التسجيلات في: https://bit.ly/3IXykFC؛ https://bit.ly/3DtJn88؛
https://bit.ly/35udvnm؛ https://bit.ly/3uPMi7e

7

مسألة التصنيف على قوائم الإرهاب

ظلت القرارات المتعلقة بالجماعات الجهادية واضحة نسبياً طوال معظم الحقبة التي تلت هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وليس ذلك مستغرباً، فتنظيما القاعدة والدولة الإسلامية مثّلا متطرفين يعتنقون رؤية مانوية للعالم تقسمه إلى خير مطلق وشر مطلق، ويرفضون أي تنازل في أيديولوجيتهم، ويواصلون تنفيذ الأنشطة الإرهابية. أما هيئة تحرير الشام فحالتها أكثر تعقيداً. فهي وإن كانت لا تزال في الظاهر جماعة مسلحة، تحكم أراضي وتسيطر عليها، ولذلك تتصرف كأنها فاعل دولتي حتى وإن لم يعترف بها المجتمع الدولي. والعنف الذي يستهدف المدنيين حين ترتكبه جماعات من غير الدول يُرجَّح أن يوصف بالإرهاب، بينما تُسمّى الانتهاكات المماثلة التي ترتكبها الدول في الغالب انتهاكات لحقوق الإنسان. والدول بطبيعة الحال قد تكون راعية للإرهاب، وإن كان لا يوجد أي دليل على أن الهيئة وحكومة الإنقاذ السورية التابعة لها ترعيان جهات أخرى لتنفيذ أعمال إرهابية خارج مناطقهما، ناهيك عن أهداف غربية.

وليست هيئة تحرير الشام أول جماعة إرهابية تسيطر على أرض أو تمارس الحكم، ولذلك فهذه المعضلة ليست فريدة. لكن الطريقة التي تقدّم بها الهيئة نفسها وتحاول من خلالها إثبات خروجها من فلك القاعدة وتنظيم الدولة الإسلامية تختلف عن أي شيء شهدته الأوساط الجهادية خلال العقدين الماضيين. ولذلك يقع على عاتق الولايات المتحدة أن تقرر كيف تصنّف الهيئة، وإلى أي مدى تريد أن تبادر إلى تشجيع الهيئة أو غيرها من الجماعات الجهادية على التخلي عن الإرهاب أسلوباً.

ويبدو أن المقاربة الواقعية تعكس نهج الممثل الأمريكي الخاص لشؤون سوريا جيمس جيفري حين بدأ محادثات عبر قنوات خلفية مع الهيئة. فقد قال: "إنهم الخيار الأقل سوءاً بين الخيارات المختلفة في إدلب، وإدلب من أهم الأماكن في سوريا، وسوريا من أهم الأماكن في الشرق الأوسط حالياً".[1] لكن في عهد إدارة بايدن، وبحسب فهم المؤلف للسياسة الحالية، لم تكن ثمة رغبة في التواصل مع الهيئة.

وقد وضعت وزارة الخارجية الأمريكية ثلاثة معايير قانونية لتصنيف منظمة ما إرهابية بموجب المادة 219 من قانون الهجرة والجنسية[2]، وتندرج تحتها فئات فرعية عدة يُنظر فيها أيضاً عند دراسة أي تصنيف محتمل. واستناداً إلى هذه المعايير، ما زالت خمسة عناصر من التعريف القانوني تنطبق على الهيئة منذ فكّ ارتباطها بتنظيم القاعدة (انظر الملحق للاطلاع على النص الكامل لهذه الشروط القانونية):

- أن تكون منظمة أجنبية.
- الاستيلاء على شخص أو احتجازه، والتهديد بقتله أو إيذائه أو مواصلة احتجازه، لإجبار طرف ثالث (بما في ذلك جهة حكومية) على القيام بفعل ما أو الامتناع عنه، شرطاً صريحاً أو ضمنياً للإفراج عن المحتجز.
- الاغتيال.
- استخدام أي متفجرات أو أسلحة نارية أو أسلحة أخرى أو أدوات خطرة (لغير مجرد الكسب المادي الشخصي)، بقصد تعريض سلامة فرد أو أكثر للخطر بصورة مباشرة أو غير مباشرة، أو إلحاق أضرار جسيمة بالممتلكات.
- العنف المتعمّد ذو الدوافع السياسية الذي ترتكبه جماعات دون مستوى الدولة أو عملاء سريون ضد أهداف غير قتالية.

والعنصر الأول من هذه العناصر الخمسة واضح بذاته. ويتعلق الثاني بسجن الناشطين السياسيين وتعذيبهم، وبمصادرة ممتلكات المسيحيين والدروز. ويندرج اغتيال رائد فارس تحت العنصر الثالث. وقد ينطبق الرابع على استمرار إطلاق الصواريخ على التجمعات المدنية العلوية، أو على إطلاق الهيئة النار على المحتجين على حكمها. أما الخامس فتكرار لأفعال سبق وصفها. ولذلك فمن المنطقي أن تواصل واشنطن تصنيف هيئة تحرير الشام منظمةً إرهابية أجنبية. ومع ذلك، يجدر النظر، حتى وإن بدا الأمر مستبعداً في المدى القريب، في

الصلاحيات الأخرى التي يمكن استخدامها لمعاقبة الهيئة إذا نزلت فعلاً دون العتبة القانونية التي تجعلها جماعة إرهابية، في أي مراجعة خمسية محتملة في المستقبل.

هل من نظام عقوبات بديل؟

إذا رأت واشنطن أن الهيئة لم تعد تستوفي العتبة القانونية الكاملة للتصنيف، فلا يزال بالإمكان تطبيق عقوبات بديلة لمحاسبة الجماعة وقادتها على أفعالهم. ومن هذه البدائل الأمر التنفيذي رقم 13572 بعنوان "تجميد ممتلكات أشخاص معيّنين في ما يتعلق بانتهاكات حقوق الإنسان في سوريا"[3]، الذي وقّعه الرئيس الأسبق باراك أوباما أواخر نيسان/أبريل 2011. ويمكن لوزارة الخزانة أن تنظر في تصنيف الهيئة بموجب البند الآتي: "أي شخص يقرر وزير الخزانة، بالتشاور مع وزير الخارجية، أنه مسؤول عن ارتكاب انتهاكات لحقوق الإنسان في سوريا أو متواطئ فيها، أو مسؤول عن الأمر بها أو التحكم فيها أو توجيهها بأي شكل آخر، أو أنه شارك في ارتكابها، بما في ذلك الانتهاكات المتعلقة بالقمع".[4] وإذا طُبّق الأمر التنفيذي 13572 أو غيره من صلاحيات العقوبات المتعلقة بحقوق الإنسان، يمكن لوزارة الخزانة أيضاً أن تُصدر تراخيص جديدة أو تحدّث التراخيص القائمة المتعلقة بالأنشطة الإنسانية، بما يسهّل تدفق مزيد من المساعدات إلى المحتاجين في إدلب. ومع أن أفراداً مصنّفين إرهابيين سيبقون موجودين في إدلب، فإن ميزة اللجوء إلى عقوبات لا تندرج ضمن مكافحة الإرهاب أنها لا تترتب عليها مسؤولية جنائية بتهمة تقديم الدعم المادي، ما يعني أن ترخيصاً من مكتب مراقبة الأصول الأجنبية الأمريكي قد يكفي لتشجيع الجهات الإنسانية على توسيع أنشطتها. فضلاً عن ذلك، قد يشجع هذا المسار الهيئة على تهميش الأفراد المصنّفين بموجب صلاحيات مكافحة الإرهاب.

ومن السبل الوسطى أيضاً أن تفرض وزارة الخزانة عقوبات على قادة بعينهم في الهيئة، فتحدّ من قدرة هؤلاء على الاستفادة من تغيّر نظام العقوبات. وعلى غرار المسار الذي اتُّبع مع "القوات المسلحة الثورية الكولومبية" (فارك)، يمكن مواصلة محاسبة من يدعون إلى الإرهاب صراحةً، والأفراد والقادة المتورطين في انتهاكات حقوق الإنسان السابقة والحالية، مع إتاحة المجال لبقية المجتمع ولقادة الهيئة الأكثر تطلعاً إلى المستقبل داخل مناطقها للمضي قدماً.[5]

غير أن قراراً كهذا سيثير على الأرجح مشكلة سياسية داخلية، ولا سيما في الكونغرس. وأحدث مثال على هذه التعقيدات السياسية الجدل حول تصنيف جماعة الحوثيين اليمنية

المسلحة المدعومة من إيران، ثم إلغاء تصنيفها، ثم احتمال إعادة تصنيفها. وبطبيعة الحال، فإن أفعال الهيئة هذه الأيام أقل فداحة بكثير مما ارتكبه الحوثيون بحق الشعب اليمني، ومن هجماتهم بالطائرات المسيّرة والصواريخ على السعودية والإمارات. لذلك، إن أُريد لهذا النظام أن يكون بديلاً ممكناً في المستقبل، فعلى الهيئة أن تواصل إحراز تقدّم في التخلص من المقاتلين الأجانب ومن المنظمات الإرهابية الأجنبية الأخرى في مناطقها، بما فيها تلك المتحالفة معها، وأن تكفّ عن تمجيد الإرهاب في الخارج وإطلاق الصواريخ على المناطق المدنية.

وبعيداً عن التداعيات السياسية داخل الولايات المتحدة، ثمة عواقب محتملة أخرى تستحق الدراسة عند منح هذا الهامش من المرونة عبر تغيير نوع العقوبات. فقد تستغل الهيئة الانفتاح في التراخيص الإنسانية لاحتكار توزيع المساعدات، كما تفعل في قطاعات أخرى، ولفرض ضرائب على المنظمات غير الحكومية الدولية مقابل عملها في مناطقها.[6] وبشأن احتكار المساعدات، تقول الباحثة في الشؤون الإنسانية ناتاشا هول إن "بعض العاملين في المجال الإنساني أفادوا بالفعل بتعرّضهم لضغوط لتقييم المشاريع تقييماً إيجابياً، واستهداف مستفيدين بعينهم، وتوظيف عاملين مرتبطين بالهيئة في المنظمات غير الحكومية، وضمان فوز المقاولين المفضّلين بالمناقصات التي تطرحها هذه المنظمات".[7] كما تخشى المنظمات السورية المحلية على خصوصية البيانات.[8] ولذلك فإن تعزيز قوة الهيئة سيزيد مع الوقت احتمال أن تُعامَل بوصفها المحاور الوحيد، على غرار ما تفعله الجهات الدولية اليوم مع نظام الأسد في ما يتعلق بالكارثة الإنسانية في مناطقه. والحجج المتعلقة بإضفاء الشرعية على الهيئة هي من نواحٍ كثيرة الحجج نفسها المتعلقة بالتطبيع مع نظام الأسد: هذا الطرف انتصر وهو الممسك بزمام الأمور، والسكان الخاضعون له يعانون، ولذلك لا بد من العمل معه ومن خلاله لمساعدة من يعانون تحت وطأة النظامين معاً.

في المقابل، تقترح هول أن "اتباع المانحين والأمم المتحدة نهجاً أكثر جماعية في التفاوض مع قادة الهيئة على الأطر التنظيمية للاستجابة الإنسانية من شأنه أن يحمي الحيّز الإنساني، بل قد يتيح التحول إلى مساعدات تعزّز قدرة الناس على الصمود". ولذلك سيكون من الحكمة، إذا تحوّل التصنيف الإرهابي إلى نوع آخر من أنظمة العقوبات، أن تتعاون الوكالات الأمريكية وتنسّق مع الجهات الإنسانية الرئيسية، الدولية والمحلية، التي عملت في سوريا وتسعى إلى توسيع عملها مستقبلاً إذا تحسنت بيئة المساعدات الإنسانية. وإذا تحقق هذا البديل، فالأمل أن ينشأ عنه موقف موحّد يحدّ من قدرة الهيئة على استغلال المساعدات الواردة إلى مناطقها، على النحو الذي أساء به نظام الأسد استخدام المساعدات الإنسانية

طوال الحرب السورية، فتصل المساعدات فعلاً إلى الأشد حاجة إليها، لا إلى أصحاب السلطة الذين يحاولون استغلال الوضع بانتهازية. وهذه بالطبع افتراضات كثيرة، إذ يمكن لواشنطن بسهولة الإبقاء على التصنيف الإرهابي الحالي للهيئة في المستقبل المنظور.

الشروط المحتملة

إذا رغبت واشنطن في وقت لاحق في تحويل التصنيف الإرهابي للهيئة إلى نظام عقوبات أكثر ارتباطاً بأفعالها خلال الحرب السورية، فمن الحكمة أن تحدد، ربما عبر إعادة فتح قنوات الاتصال الخلفية، خطوات يمكن للهيئة اتخاذها لتبديد المخاوف من أن يؤدي هذا التغيير إلى مزيد من ترسيخ قبضتها السلطوية على المناطق التي تنشط فيها. وقد تكون لدى الولايات المتحدة قائمتها الخاصة من الإجراءات المحددة المرتبطة بمعايير التصنيف المذكورة آنفاً. وإلى جانب هذه المعايير، فيما يلي بعض المعايير المرجعية التي ينبغي لواشنطن أن تنظر في مطالبة الهيئة بها، وإن كانت الجماعة سترى على الأرجح بعضها ضرباً من العبث. لكن سيكون أشبه بالمهزلة أيضاً أن تتوقع الهيئة من الولايات المتحدة تغيير تصنيفها من دون أن تحصل واشنطن على أي شيء في المقابل.

- **السماح لمنظمات حقوق الإنسان بتفتيش السجون وإصدار تقارير مستقلة بنتائجها.** فقد أعلن الجولاني في مقابلته مع "فرونت لاين": "ربما تستطيع بعض منظمات حقوق الإنسان أن تأتي وتشرف على السجون، أو تلقي نظرة عليها. مؤسساتنا مفتوحة للجميع، والمنظمات مرحّب بها".[9] ومن المفيد اختبار هذا الكلام، وربما تحقيق شيء إيجابي منه، كتحسين أوضاع سجون الهيئة.
- **الإفراج عن السجناء السياسيين وتقديم التعويضات.** وإذا قُتل أشخاص أو توفوا أثناء احتجازهم في سجون الهيئة، فعلى الجماعة تقديم مساعدات مالية لذويهم.
- **تشكيل لجنة للحقيقة والمصالحة.** فهذه خطوة مهمة تُظهر أن الهيئة جادة في المحاسبة على انتهاكاتها السابقة والحالية لحقوق الإنسان. كما تُظهر أنها فاعل جاد وأكثر نضجاً وقادر على نقد الذات، وتتيح للسكان المضي قدماً متى أُنشئت هذه اللجنة، وسُمح لها بالعمل والتحقيق في جرائم الماضي باستقلالية، ومُنحت أدوات إلزامية فعلية لتقديم المنتمين إلى الهيئة والجماعات التي سبقتها إلى العدالة، بعد إعداد ملف وتقرير يُنشران علناً وعلى الإنترنت.

- **فتح انتخابات مجلس الشورى ورئاسة الوزراء في حكومة الإنقاذ أمام جميع السكان، بمن فيهم النساء.** فذلك سينشئ نظاماً أكثر عدلاً يكون فيه لكل أفراد المجتمع صوت.
- **السماح للولايات المتحدة وغيرها من الحكومات بتمويل منظمات المجتمع المدني والكيانات المؤيدة للديمقراطية في مناطق سيطرة الهيئة.** على أن تُعتمد آلية لإعادة فرض العقوبات تلقائياً إذا اتُّخذت أي إجراءات ضد الناشطين.
- **حلّ هيئة تحرير الشام ودمج بنيتها التحتية بالكامل في حكومة الإنقاذ السورية.** من غير المرجح أن تقبل الهيئة هذه الخطوة، لكنها ستكون موقفاً تفاوضياً افتتاحياً ذكياً في أي مفاوضات أمريكية مع الجماعة. فخضوع القوات المسلحة للسلطة المدنية من أهم سمات الحكومة المستقرة القادرة على أداء وظائفها. وإذا كانت الهيئة جادة في رغبتها في الشطب من القائمة، فعليها أن تحلّ نفسها وتتصرف كما تتصرف أي حكومة عادية، فلا تحتفظ ببنية عسكرية خارج إطار الهيئة الحاكمة الشرعية. وتوضع القوات المقاتلة للهيئة تحت إمرة وزارة دفاع محتملة. ولا توجد حالياً أي بنية مماثلة داخل حكومة الإنقاذ، وهذا يُبرز الطابع الإشكالي لمحاولة الهيئة الظاهرة اتخاذ "مسافة رسمية" من سلطتها على الأرض عبر حكومة الإنقاذ، في حين أنها تمسك في الواقع بزمام القضايا الأكثر حساسية من خلف الستار. كما أن وزارة الدفاع ستكون فعلياً تابعة لرئيس وزراء حكومة الإنقاذ، الذي سيقود الحكومة باستقلالية من دون أن يحتاج الجولاني إلى إضفاء الشرعية على أنشطتها. وفي المقابل، إذا أراد الجولاني حقاً أن يقود علناً، فعليه أن يترشح لرئاسة الوزراء في انتخابات.
- **تنحّي القيادة التاريخية العليا للهيئة طوعاً، وقضاء أحكام بالسجن على جرائم الماضي، ثم اعتزال العمل العام بعد انقضاء هذه الأحكام.** وهذا مطلب يترتب على المطلب السابق. ففي الوضع المثالي، يُحاسَب من قادوا الجماعة خلال العقد الماضي، بما يحقق قدراً من العدالة لضحايا الهيئة والجماعات التي سبقتها. ويمكن الاستفادة من جوانب النموذج الذي طُبّق على "كارتل كالي" في كولومبيا، حين سلّم بعض قادته أنفسهم طوعاً، وقضوا أحكاماً بالسجن، ثم اعتزلوا. وفي هذه الحالة، ونظراً للتحالف غير المعلن بين تركيا والهيئة، يبدو من المنطقي نسبياً إيداع قادة الهيئة الرئيسيين المتورطين في انتهاكات حقوق الإنسان السابقة في السجون التركية، لأن نظام الأسد لا يحترم سيادة القانون. ومع أن تركيا تعمل مع الهيئة بشكل غير رسمي،

فإن الحكومة التركية تصنّفها جماعةً إرهابية. وبعد قضاء أحكامهم، يمكن لهؤلاء القادة البقاء في تركيا من دون أي انخراط في أنشطة الهيئة أو حكومة الإنقاذ. وقد يوفر هذا الخيار سبيلاً لإضفاء الشرعية على حكومة الإنقاذ وعملها وعلى الفاعلين في هياكلها.

ومع أن هذه المعايير المرجعية المحتملة قد تصلح نقطة انطلاق لمفاوضات ممكنة، فإن الرغبة داخل الحكومة الأمريكية في التوصل إلى أي ترتيب من هذا النوع محدودة في أحسن الأحوال. ومن المهم أيضاً التشديد على ما طرحه الباحثان السوريان رهف الدغلي وعزام القصير، اللذان يريان، ومعهما سوريون كثيرون داخل مناطق الهيئة وخارجها، أن أي نوع من التسوية معها سياسة خاطئة "تحرّكها إما مثالية إنسانية أو واقعية جيوستراتيجية صرفة"، وأنها تقوّض "الأمل في بناء سلام مستدام في دولة سورية موحّدة".[10] ويرى المؤلف أن السياسة الأذكى هي الإبقاء على التصنيف الحالي إلى أن تُجري الهيئة مزيداً من التغييرات. ومع ذلك، سيكون من المفيد اختبار ما إذا كانت الهيئة أكثر استعداداً لفتح نظامها السياسي والخضوع للمحاسبة على جرائم الماضي، مهما بدا ذلك مستبعداً. وخلاصة القول إن نقل الهيئة إلى نظام عقوبات مختلف ليس مطروحاً بصورة واقعية في هذه المرحلة، وإن كان من المفيد عرض أدوات السياسة الممكنة التي تستطيع واشنطن استخدامها وفقاً لأولوياتها.

الهوامش

1. مارتن سميث، "مقابلة: جيمس جيفري"، فرونت لاين، 8 آذار/مارس 2021، https://www.pbs.org/wgbh/frontline/interview/james-jeffrey

2. وزارة الخارجية الأمريكية، "المنظمات الإرهابية الأجنبية"، مكتب مكافحة الإرهاب، https://www.state.gov/foreign-terrorist-organizations؛ "المادة 212 من قانون الهجرة والجنسية"، 8 نيسان/أبريل 2008، https://2001-2009.state.gov/s/ct/rls/fs/08/103399.htm؛ للاطلاع على التعريف، انظر:
https://www.law.cornell.edu/definitions/uscode.php?width=840&height=800&iframe=true&def_id=18-USC-216574708-1528478296&term_occur=999&term_src
؛ وزارة الخارجية الأمريكية، "قانون تفويض العلاقات الخارجية، السنتان الماليتان 1988 و1989: تعريف الإرهاب"، مكتب منسق مكافحة الإرهاب، 8 نيسان/أبريل 2008، https://2001-2009.state.gov/s/ct/rls/fs/08/103401.htm

3. البيت الأبيض، مكتب السكرتير الصحفي، "الأمر التنفيذي 13572: تجميد ممتلكات أشخاص معيّنين في ما يتعلق بانتهاكات حقوق الإنسان في سوريا"، 29 نيسان/أبريل 2011، https://obamawhitehouse.archives.gov/the-press-office/2011/04/29/executive-order-13572-blocking-property-certain-persons-respect-human-ri

4. المصدر نفسه.

5. وزارة الخارجية الأمريكية، "إلغاء تصنيف القوات المسلحة الثورية الكولومبية (فارك) منظمةً إرهابية وتصنيفات إرهابية إضافية"، 30 تشرين الثاني/نوفمبر 2021، https://www.state.gov/revocation-of-the-terrorist-designations-of-the-revolutionary-armed-forces-of-colombia-farc-and-additional-terrorist-designations

6. ناتاشا هول، "إنقاذ المساعدات في سوريا" (واشنطن العاصمة: مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية، 2022)، ص 25، https://www.csis.org/analysis/rescuing-aid-syria

7. المصدر نفسه، ص 26.

8. المصدر نفسه.

9. مارتن سميث، "الجهادي: أبو محمد الجولاني"، فرونت لاين، 1 و14 شباط/فبراير 2021، https://www.pbs.org/wgbh/frontline/interview/abu-mohammad-al-jolani

10. الدغلي والقصير، "مكّنوا السوريين لا أمراء الحرب"، https://www.atlanticcouncil.org/blogs/menasource/empower-syrians-not-warlords

8

الخاتمة

ما زال من غير الواضح ما إذا كانت واشنطن ستستجيب لمطالب أبي محمد الجولاني بشطب هيئة تحرير الشام من قائمة المنظمات الإرهابية الأجنبية. فمع تحوّل الولايات المتحدة إلى تركيز مواردها على الصين وروسيا أكثر من التحدي الجهادي، قد تفضّل واشنطن الإبقاء على الوضع الراهن، لأن الهيئة والمناطق التي تسيطر عليها لا تُعدّ ذات أهمية من منظور استراتيجي مقارنة بقضايا أخرى في المنطقة الأوسع، فضلاً عن العالم.

ومع ذلك، فإن تحوّل الهيئة إلى جماعة جهادية يغلب عليها الطابع السياسي أكثر من الطابع العقدي جدير بالفهم، لأن ديناميات مماثلة قد تتكرر في أماكن أخرى. ولكل سياق ولكل جماعة بطبيعة الحال خصوصيتهما، والفهم التفصيلي لهذه الديناميات هو مفتاح استيعاب أي تحولات قد تكون جارية. لكن الجماعات الجهادية التي تزداد اهتماماً بالدبلوماسية والتفاوض، إلى جانب أنشطتها الأشهر في التمرد والإرهاب والحكم المحلي، تكشف مستوى أكبر من التعقيد ينبغي للحكومات والجهات المعادية لها أن تأخذه في الحسبان عند سعيها إلى عزل هذه الجماعات أو ردعها أو هزيمتها.

ومن المهم أيضاً الإشارة إلى أن جماعات أخرى بدأت تتبرأ من العمليات الخارجية في الدول الغربية، رغم الشكوك في صدق هذه التصريحات. فقد أعلنت جماعات مثل تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، ومن المرجح أيضاً فرعه "جماعة نصرة الإسلام والمسلمين"، وحركة "طالبان باكستان"، مؤخراً أن هذه العمليات الخارجية لم تعد من اهتماماتها وأولوياتها. لكن من الممكن أن تظل هذه الجماعات ترى في الهجمات على أهداف غربية داخل مناطق نفوذها الإقليمية عملاً مشروعاً، وهذا ما يُثني أي حكومة غربية عن

التواصل معها. ففي حزيران/يونيو 2021 مثلاً، قال أبو عبيدة يوسف العنابي، زعيم تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، إن فرنسا "تخدع" مواطنيها حين تقول إن عملياتها في مالي ضرورية لحماية فرنسا من الهجمات الجهادية على أراضيها، إذ لم يقع قط هجوم على الأراضي الفرنسية نفّذه مواطن مالي أو دبّره جهاديون مقيمون في مالي.[1] وفي وقت أقرب، أصدر المتحدث باسم حركة طالبان باكستان، محمد خراساني، بياناً قال فيه إن الحركة لا تملك أجندة عالمية وإن حربها تقتصر على باكستان.[2] واللافت أنه طالب في البيان نفسه "الولايات المتحدة بدعم حركة طالبان باكستان في قتالها ضد الدولة الباكستانية من أجل حقوق القبائل المظلومة".[3] وحتى بين هذه الجماعات، ثمة تفاوت في طريقة تقديمها لهذه المسألة.

ولذلك يُرجَّح أن تتحول القضايا المتعلقة بهيئة تحرير الشام التي عرضتها هذه الدراسة إلى معضلات سياسية أكبر يتعيّن على واشنطن التعامل معها في ما يخص بعض الجماعات الجهادية. ومن المفيد التفكير في سياسة للتعامل مع هذه القضايا الشائكة وغير المريحة على الأرجح، حتى وإن قررت الولايات المتحدة وغيرها من الحكومات في النهاية الإبقاء على مقاربة أمنية خالصة تجاه جماعات لم تتغير إلا في الهوامش. ولا يعود ذلك فقط إلى أن الجماعات الجهادية تزداد قوة كلما ضعفت الحكومات المحلية، بل أيضاً إلى تزايد تركيز واشنطن على التنافس مع روسيا والصين. ومن ثَمّ، فإن تراجع القلق من الجماعات الجهادية مقارنة بما كان عليه في أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر مباشرة قد يُنظر إليه فرصةً لتركيز الموارد في مكان آخر. ومن المهم أن نتذكر أن هذه الجماعات الجهادية تعارض أيديولوجياً مصالح واشنطن والغرب في تعزيز نظام عالمي أكثر ليبرالية. ولذلك فإن أي تغييرات محتملة ستكون في أفضل الأحوال قائمة على المصلحة المتبادلة. وسيتعيّن على واشنطن أن تحسب كلفة تغيير مسار سياستها الحالية تجاه الهيئة وفوائده.

وأياً كان ما ستقرره الولايات المتحدة في النهاية، فإن النظر إلى الجولاني والهيئة من منظور تنظيم القاعدة منفصل عن الواقع على أقل تقدير، وسيقود إلى تقييمات خاطئة للجماعة. وأي فهم قاصر لطبيعة الجماعة الحالية، مهما ظلت متطرفة وسلطوية، قد يخلق مشكلات أخرى في المستقبل. وبصرف النظر عن خطوات واشنطن المقبلة، فإن عصر الجهادية السياسية قد حلّ.

الهوامش

1. الشيخ أبو عبيدة يوسف العنابي، "وليَنصرنَّ الله من ينصره"، مؤسسة الأندلس للإنتاج الإعلامي، 20 حزيران/يونيو 2021، https://bit.ly/3iToSsj
2. انظر تغريدة عبد سيد (@abdsayedd): "المتحدث باسم حركة طالبان باكستان محمد خراساني يرفض جميع الادعاءات بشأن ارتباطه بتنظيم القاعدة أو داعش. ويضيف أن حركة طالبان باكستان لا تملك أي أجندة عالمية وأن حربها مقتصرة على باكستان وحدها. ويطلب من الولايات المتحدة دعم الحركة في كفاحها ضد الدولة الباكستانية دفاعاً عن حقوق القبائل المظلومة"، تويتر، 12 شباط/فبراير 2022، الساعة 4:37 صباحاً، https://twitter.com/abdsayedd/status/1492432632784863232
3. المصدر نفسه.

ملحق

المعايير القانونية لتصنيف منظمة إرهابية

المعايير القانونية لتصنيف منظمة إرهابية بموجب المادة 219 من قانون الهجرة والجنسية:[1]

1. أن تكون المنظمة أجنبية.

2. أن تمارس المنظمة نشاطاً إرهابياً وفق تعريفه في المادة 212 (أ)(3)(ب) من قانون الهجرة والجنسية ((8 U.S.C. § 1182(a)(3)(B))، أو إرهاباً وفق تعريفه في المادة 140(د)(2) من قانون تفويض العلاقات الخارجية للسنتين الماليتين 1988 و1989 ((22 U.S.C. § 2656f(d)(2))، أو أن تحتفظ بالقدرة والنية على ممارسة النشاط الإرهابي أو الإرهاب.

أ. تعرّف المادة 212 (أ)(3)(ب) من قانون الهجرة والجنسية (8 U.S.C. § ((1182(a)(3)(B) "النشاط الإرهابي" بأنه: أي نشاط غير مشروع بموجب قوانين المكان الذي يُرتكب فيه (أو يكون غير مشروع بموجب قوانين الولايات المتحدة أو أي ولاية من ولاياتها لو ارتُكب فيها)، وينطوي على أي مما يلي:[2]

(1) اختطاف أي وسيلة نقل أو تخريبها (بما في ذلك الطائرات والسفن والمركبات).

(2) الاستيلاء على شخص آخر أو احتجازه، والتهديد بقتله أو إيذائه أو مواصلة احتجازه، لإجبار طرف ثالث (بما في ذلك جهة حكومية) على

القيام بفعل ما أو الامتناع عنه، شرطاً صريحاً أو ضمنياً للإفراج عن الشخص المحتجز.

(3) الاعتداء العنيف على شخص مشمول بالحماية الدولية (وفق التعريف الوارد في المادة 1116(ب)(4) من الباب 18 من مدونة قوانين الولايات المتحدة) أو على حريته.

تعني المادة 1116(ب)(4) من الباب 18 من مدونة قوانين الولايات المتحدة: رئيس الدولة أو من يعادله سياسياً، أو رئيس الحكومة، أو وزير الخارجية، متى كان في بلد غير بلده، وأي فرد من أفراد أسرته يرافقه؛ أو أي ممثل أو مسؤول أو موظف أو وكيل آخر لحكومة الولايات المتحدة أو لحكومة أجنبية أو لمنظمة دولية، يحق له في الزمان والمكان المعنيين، بموجب القانون الدولي، التمتع بحماية خاصة من أي اعتداء على شخصه أو حريته أو كرامته، وأي فرد من أفراد أسرته يقيم معه في المنزل نفسه آنذاك.[3]

(4) الاغتيال.

(5) استخدام أيٍّ مما يلي:

- عامل بيولوجي أو عامل كيميائي أو سلاح أو جهاز نووي؛ أو
- متفجرات أو أسلحة نارية أو أسلحة أخرى أو أدوات خطرة (لغير مجرد الكسب المادي الشخصي)، بقصد تعريض سلامة فرد أو أكثر للخطر بصورة مباشرة أو غير مباشرة، أو إلحاق أضرار جسيمة بالممتلكات.

(6) التهديد بأيٍّ مما سبق أو الشروع فيه أو التآمر لارتكابه.

ب. تعرّف المادة 140(د)(2) من قانون تفويض العلاقات الخارجية للسنتين الماليتين 1988 و1989 ((22 U.S.C. § 2656f(d)(2) "الإرهاب" بأنه "عنف متعمّد ذو دوافع سياسية ترتكبه جماعات دون مستوى الدولة أو عملاء سريون ضد أهداف غير قتالية".[4]

3. أن يهدد النشاط الإرهابي للمنظمة أو إرهابها أمن مواطني الولايات المتحدة أو الأمن القومي للولايات المتحدة (الدفاع الوطني أو العلاقات الخارجية أو المصالح الاقتصادية).

الهوامش

1. انظر: https://www.state.gov/foreign-terrorist-organizations
2. مكتب منسق مكافحة الإرهاب، "المادة 212 من قانون الهجرة والجنسية"، وزارة الخارجية الأمريكية، 8 نيسان/أبريل 2008، https://2001-2009.state.gov/s/ct/rls/fs/08/103399.htm
3. انظر:
https://www.law.cornell.edu/definitions/uscode.php?width=840&height=800&iframe=true&def_id=18-USC-216574708-1528478296&term_occur=999&term_src
4. مكتب منسق مكافحة الإرهاب، "قانون تفويض العلاقات الخارجية للسنتين الماليتين 1988 و1989: تعريف الإرهاب"، وزارة الخارجية الأمريكية، 8 نيسان/أبريل 2008، https://2001-2009.state.gov/s/ct/rls/fs/08/103401.htm

"تحليل لامع للمسار السياسي لهيئة تحرير الشام، يقترن بتقييم منصف ومتّزن للمعضلة السياسية التي تطرحها. كيف ينبغي للغرب أن يتعامل مع جماعة تخلّت عن تنظيم القاعدة لكنها تحتذي بنموذج طالبان؟ هذا هو السؤال الذي يتناوله هارون زيلين في هذه الدراسة الكاشفة".

—**كول بونزل**، زميل في معهد هوفر، ومحرر موقع "جهاديكا"

"يرصد هارون زيلين في هذه الدراسة الشاملة تعقيد هيئة تحرير الشام وتحوّلاتها الأخيرة، ويتناول السؤال الشائك عمّا إذا كان ينبغي شطب الجماعة من قوائم الإرهاب الدولية. قراءة مهمة لكل من يريد فهم تطوّر الهيئة والوضع الراهن في شمال غرب سوريا".

—**عروة عجوب**، محلل أول في شركة COAR Global Ltd.

هارون ي. زيلين زميل "ريتشارد بورو" في معهد واشنطن، وباحث زائر في قسم السياسة بجامعة براانديز، ومؤسس موقع Jihadology.net. وهو مؤلف كتاب "أبناؤكم في خدمتكم: دعاة الجهاد التونسيون" (مطبعة جامعة كولومبيا)، إضافة إلى دراسة المعهد الصادرة حديثاً "سوريا في قلب التنافس على النفوذ ومكافحة الإرهاب".

IDEAS. ACTION. IMPACT.
THE WASHINGTON INSTITUTE FOR NEAR EAST POLICY

www.washingtoninstitute.org